

عبد الوهاب مطاوع
أعطِ الصباح فرصة!
الدار المصرية اللبنانية

أعطِ الصباح فرصة !

عبد الوهاب مطاوع

مطاوع ، عبد الوهاب
أعط الصباح فرصة / عبد الوهاب مطاوع
.ـ ط1.ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2008
232 ص ؛ 21 سم .
تدمك : 5 ـ 343 ـ 427 ـ 977
1 ـ القصص الاجتماعية
2 ـ القصص العربية
أ ـ العنوان 813,03

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الايداع : 1604 / 2008

الطبعة الأولى : للدار المصرية اللبنانية
رجب 1429 هـ ـ يوليو 2008 م

عبد الوهاب مطاوع

أعطِ الصباح فرصة !

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

«إذا كان الربيع قد جاء فليس الربيع ببعيد» .

كلمة جميلة كتبها شاعر إنجليزى مجهول أتذكرها دائمًا فى أوقات العناء، وألتمس فيها الأمل والعزاء .

وهذا باختصار ما يحاول هذا الكتاب أن يقوله لك بطريقة أو بأخرى من خلال فصوله المختلفة، فهو كتاب متفائل يغنِّى للحياة والأمل فى مستقبل أفضل، ويدعو إلى التفاؤل وانتظار الصباح مهما طال بنا الليل، لكى يجىء ويغسل الأحزان والهموم .

إنه كتاب يستبشر بالحياة ويؤمن بالإنسان، وهو من أحب كتبى إلى قلبى؛ لأننى قد كتبته أصلاً للشباب، والشباب عندى هو حالة نفسية وعقلية أكثر منه مرحلة من مراحل العمر .

لهذا، فأنت شاب مهما كان عمرك إذا كنت تتعامل مع الحياة بحماسة وإخلاص وتنظر للأمام دائمًا بقلب متفائل يرجو رحمة الله . . ويتوقع الخير من الآخرين . وأنت شيخ العقل والقلب إذا كنت قد فقدت حماستك للحياة ولا تؤمن مع أصحاب القلوب الحكيمة بالصباح الذى يجىء دائمًا فى أعقاب كل ليل طويل، حاملاً الخير للجميع .

إنه أغنية للحياة وكل القيم النبيلة التى تخفف من مساحة العناء والقبح فى حياة الإنسان وتزيد من دوائر الحق والخير والجمال .

فعسى أن أكون قد وفقت فى أن أشركك معى فى الإيمان بالصباح . وعسى أن أكون قد خففت بهذا الكتاب عنك بعض لحظات اليأس . . والقنوط . . والشك فى الإنسان .

عبد الوهاب مطاوع

املأ عينيك !!

هناك أشخاص نلتقى بهم أحيانًا مرة أو بضع مرات ، ثم تجرفهم أمواج الحياة بعيداً عنَّا فلا نراهم بعد ذلك أبدًا، ولا يبقى لنا منهم سوى الذكريات تعاودنا فى بعض مناسبات الحياة. . فنستعيد ما تعلمناه منهم بغير أن يدركوا ذلك، ونسترجع من عالم الغيب وجوههم وأصواتهم، ونقول مع الشاعر :

انْقَضَتْ تِلك السُّنونُ وأهْلُها

فكَأنَّها . . وكَأنَّهم . . أحْلامُ

من هؤلاء الأشخاص . . شاب ضئيل الجسم، رفيع الصوت . . التقيت به فى فينسيا ـ المدينة الإيطالية العائمة ـ حين وصلت إليها فى خريف عام 1970م، فى أول رحلة أوروبية لى لأنتظر السفينة المصرية وأعود مع سيارتى التى اشتريتها من إيطاليا إلى الإسكندرية . . وكان المصريون قد بدأوا يعرفون لأول مرة حرية السفر إلى الخارج بعد سنوات طويلة ، فخرج شباب كثيرون فى

الإجازة الصيفية يعملون فى الحقول والمصانع ، ويشترى بعضهم سيارات مستعملة ويتجهون بها إلى فينسيا للعودة معها على الباخرة.

وفى انتظار السفينة التى لا تأتى إلا مرة واحدة فى الأسبوع، كان المصريون يتجمعون فوق الكوبرى المؤدى إلى الميناء مع سياراتهم فيبيتون داخلها، ويتشاركون فى الطعام والمرح والسمر فى حلقات يومية من الصباح حتى آخر الليل، وكانوا جميعًا طلبة جامعيين تدور أعمارهم حول العشرين ، وكنت صحفيًا بالأهرام و«مريضًا» ومازلت بعادة تأمُّل ومحاولة اكتشاف الجوانب الفنية فى شخصيات الآخرين، والانجذاب إلى النماذج البشرية التى تصلح لأن تكون شخصيات درامية.

ورأيت هذا الشاب فى إحدى هذه الحلقات وسمعته . كعادة هؤلاء الشباب فى رواية قصصهم مع السفر. يحكى تجربته فتركت الجميع واقتربت منه بالرغم من لمسة السخرية التى لمحتها فى عيون زملائه وضحكاتهم منه، فقد كان يروى قصته، التى يعرفها معظمهم مع العمل بمصانع ألمانيا خلال الإجازة فحكى كيف رحَّب به رئيس العمال الصارم فى أول مصنع ذهب إليه وحدد له أجرًا قدره 25 ماركًا فى اليوم، فسعد بهذا الأجر كثيرًا؛ لأنه يكفى لنفقات طعامه بعد أن أنفق كل ما كان معه فى شراء سيارة قديمة، لكن الشاب عرف بعد أسبوع من عمله – أن أجره الحقيقى المدوَّن

فى دفاتر المصنع 50 ماركًا. وأن رئيس العمال يقبضه ويوقع بدلاً منه ويعطيه 25 ماركًا وأنه يفعل ذلك مع الآخرين ، وهو واثق من أنهم لن يجرؤوا على الاعتراض؛ لأنهم أجانب ويستطيع أن يفصلهم فى أى لحظة، وتحدث الشاب إلى زملائه - ومنهم مصريون - فى ضرورة مواجهة رئيس العمال ومطالبته بأجرهم الكامل فرفضوا وسخر البعض منه؛ لأن النتيجة الحتمية لذلك هى فصله وضياع أجره، لكن الشاب لم يقبل التراجع وتوجه إلى رئيس العمل، الضَّخم الجثة، وواجهه بما عرفه وطالبه بأجره الكامل ابتداء من اليوم وبأن يوقع باستلامه فى دفتر المصنع بنفسه. . وعندما وصل الشاب فى قصته إلى هذا الحد، سألته متلهفًا : وماذا حدث؟ فأجابنى ببساطة بصوته الرفيع العجيب : لا شىء. . نظر إلىَّ رئيس العمل نظرة تطاير منها شرر النار، ثم جذبنى إلى باب المصنع ودفعنى منه دفعة قوية وهو يصرخ بكلمة واحدة هى : فيك!

فسألته وقد بلغ بى الاهتمام قمته : وماذا تعنى كلمة «فيك»! فضحك السامعون. . أما هو فابتسم راضيًا وقال: يعنى بره! وقد قلت له وهو يجذبنى إلى الخارج : فيك. . فيك. . الأرزاق على الله! وغادرت المصنع غير نادم وبقيت أسبوعًا بلا عمل، ثم دلنى زملائى على مصنع آخر فعملت فيه، لكنى لم أستقر فيه أيضًا سوى أسبوع واحد لنفس السبب، فقد كان رئيس العمال يستولى هو الآخر على نصف أجرى بنفس الطريقة. . وحثثت زملائى على

مـواجـهـتـه فـرفـضـوا وحـذرونى منه ؛ لأنـه شـرس ، لكنى لـم أهتم وواجهته بما عرفت .

فلم أتمالك نفسى من اللهفة وسألته : فماذا قال لك؟ فأجاب : قـال لى «فيك» ، لكنه لـم يجـذبنى للخارج . . فقلت له : فيك . . فيك . . الأرزاق على الله! وخرجت وأمضيت أسبوعًا آخر بلا عمل ولا نقـود ، ثم عملت فى مزرعة فتكررت فيها نفس القصة بحذافيرها وتركتها غير نادم ، وفى هذه المرة طالت بطالتى حتى إننى لم أكن لأستطيع أن أشترى من الطعام سوى رغيف خبز واحد كل يوم ؛ ألتهمه كأنه سندوتش وأبيت فى سيارتى ، واعتذرت عن قبول أية مساعدة من زملائى ، رغم إلحاحهم علىَّ بدعوتى للطعام أو إقراضى إلى أن عملت أخيرًا فى مصنع رئيس عماله أمين لا يسرق أجر العمال الأجانب فاسترحت له واستراح لى وعملت معه حتى انتهت الإجازة وودعته شاكرًا له أمانته .

ومنذ سمعت منه قصته ، أصبح صديقى الأول خلال أسبوع الانتظار الذى قضيته فى فينسيا ، أمضى معه معظم ساعات النهار ، وأستدرجه كل يوم ليحكى لى قصته من جديد ، وأرى فيه شابًا لا يقبل الضيم ولا يرضى لنفسه بأن يستغله أحد . . ولا يضعف عن مواجهة ظالمة مع علمه الأكيد بأن المواجهة لن تسفر إلا عن طرده من العمل ، وتنبأت له بأنه سيكون إنسانًا ناجحًا فى حياته . . وعادلاً مع الحياة ، ولا يقبل الظلم لنفسه ولا يرضاه للآخرين . وحين جاءت

السفينة، سعيت إليه فى الدرجة الثالثة واصطحبته إلى قبطان السفينة، الذى كنت على معرفة به، وحثثته على أن يروى له قصته مع رؤساء العمال فرواها له وضحك لها القبطان سعيداً ومعجبًا بهذا الشاب، ودعاه يومها إلى العشاء على مائدته الرئيسية بقاعة الطعام الكبرى، وأعطاه تصريحًا يسمح له بتناول وجباته فى مطعم الدرجة الأولى طوال أيام السفر الخمسة ورافقنى طوال رحلة الباخرة، ووجدت فى صحبته أنسًا حقيقيّا، ثم وصلت السفينة فى النهاية إلى الإسكندرية، ونزل كل منا إلى وجهته . . فلم أره بعدها أبدًا . . ولم أسمع عنه ولم يبق منه سوى ذكراه وسوى صوته الرفيع وهو يقول : «فيك . . فيك . . الأرزاق على الله» . . ووجهه الباسم الراضى عن نفسه، رغم ضحكات الضاحكين وإعجابى بشجاعة روحه . . وإيمانه العميق بأنه لا يحق لأحد أن يقهر أحدًا أو يستغله وأنه لا يجوز لإنسان أن يقبل الظلم والاستغلال، وإلا كان مقصراً فى حق نفسه .

وما أكثر ما تمنيت لو كان للجميع قوة هذا الشاب الضئيل . . يا إلهى . . كادت المساحة تنتهى، ولم أحدثك بعد عن صديقى الآخر، المهاجر المصرى إلى السويد منذ ٢٨ سنة، والذى التقيت به على غير معرفة فى مطار هلسنكى عاصمة فنلندا منذ سنوات، وركبنا الطائرة معًا، فجاء يجلس إلى جوارى ويستدرجنى للحديث عن نفسه، فإذا به يروى قصته وهى مغامرة تصلح لأن تكون فيلمًا

سينمائيًا اضطر، خلاله للهرب من مصر ليلحق بزوجته السويدية التى عجز عن السفر إليها بالطريقة المشروعة فى فترة منع السفر فى الستينيات؛ فانتظر وصول سفينة سويدية إلى الإسكندرية، ثم اندس بين بحارتها وهم فى بار أحد فنادق الثغر، وارتدى قميصًا أبيض مشابهًا لقمصانهم وسهر معهم حتى نهاية السهر، ثم ركب معهم الميكروباص الذى سيعود للميناء فلم يشعروا به وهم مخمورون واختبأ فى زورق نجاة على ظهر الباخرة حتى خرجت من المياه الإقليمية ، ثم تغاضى عنه القبطان بعد أن عرف قصته وسمح له بالسفر إلى السويد، حيث كانت زوجته فى الانتظار، وأقام هناك وصنع نجاحه وصحح وضعه وأصبح يعود لمصر كل عام، فانبهرت بجرأته وقصته الغريبة ولم يفتر بيننا الحديث طوال ساعات السفر حتى تصوَّر المضيف أننا صديقان حميمان مع أنى لم ألتق به إلا فى طابور الركاب أمام باب الطائرة، ثم وصلنا إلى القاهرة وتبادلنا البطاقات ووعود الاتصال وخرج كل منَّا إلى وجهته فلم أره بعدها ولم أسمع عنه، وإن كنت قد تعلمت منه درسًا آخر من دروس الحياة هو أنه لا شىء يستطيع أن يهزم إرادة الإنسان إذا صح عزمه، وأن روح الإنسان أقوى كثيراً من عضلاته ومن كل القيود والسدود.

كذلك لم أحدثك عن «آنى» الفتاة الملاوية الصغيرة، التى كانت تقيم ببيت الطلبة العالمى فى مدينة كارديف ببريطانيا عام 1978م، وكانت تدرس الكيمياء، وكنت أدرس الصحافة، وكنَّا نكوِّن معًا

فريقًا للعب مباريات تنس الطاولة الزوجية ونفوز على معظم المنافسين ، فإذا أحست هى أن الفريق الذى نلاعبه أضعف منَّا كثيراً ، زعقت بصوتها الرنَّان Unbalance ـ أى «عدم تكافؤ» وأصرَّت على إيقاف اللعب ، وأن نتبادل المراكز فألعب مع الفريق المنافس ، ويلعب أحد عضويه إلى جانبها ؛ لأن الفوز الرخيص لا يستحق العناء ، وإنما الهدف هو المنافسة والكفاح بشرف فتتحقق متعة الفوز ومتعة اللعب ، ثم انتهت الدراسة ، وودعت «آنى» كل الأصدقاء باكية وهى تستعد للسفر إلى بلدها ، وعدت إلى بلدى بعد أن تبادلنا العناوين ، فجاءتنى منها بعد أيام بطاقة بريد تنطق كلماتها بالحزن على الأيام السعيدة فى بيت الطلبة العالمى ، ولا أعرف لماذا لم أرد على بطاقتها . . كما لم أرها منذ ذلك الحين ، ولم تكتب لى ، بل ولم أحتفظ بعنوانها ، لكنى أحتفظ لها فى سمعى بصوتها الرنَّان وهى تهتف بكلماتها المشهورة منغمة كأنها تغنيها ، واستعدتها فى مناسبات عديدة ، وفهمت مغزاها وهو : «أى شجاعة فى ضرب جثة !» على حد قول شكسبير ، وأنه ينبغى أن يتعفف الإنسان عن منازلة من هم أضعف منه ، وأن يتخير لمنازلته الأكفاء وحدهم . . إن كان ثمة ضرورة لأن ينازل أحدًا !

. .

ذكريات . . وأشخاص نلتقى بهم ونقترب منهم ويؤثرون فينا بغير أن يعرفوا ذلك . . ثم تجرف أمواج الحياة كلا منَّا فى اتجاه ، فلا نلتقى بعدها أبدًا ، فإذا تذكرتهم تذكرت معهم قول القائل ؛ املأ

عينيك من كل الأشياء . . وتمتع بوجود الأصدقاء والأحياء فربَّما لا تراهم مرة أخرى . . بعد حين، وأقول لنفسي مصدقًا: نعم . . فلربما لا نراهم مرة أخرى . . بعد حين!

إبداع « خديجة » !

ولم تكن امرأة تبدع فى بيتها مثل خديجة!

فقد كانت طاهية . . ونجارة . . وحدادة . . ومهندسة ديكور . . وخياطة ملابس . . ومنسقة زهور وحدائق . . وفنانة تدبير منزلى واقتصاد . . وآية فى الذوق والنظافة . . فكأنما تمسك بعصا سحرية تحيل بها المكان الذى توجد فيه إلى مكان نظيف تنتشر فيه لمسات الجمال . . على قدر الحال!

فمن هى خديجة الساحرة هذه؟

إنها زوجة المفكر الجزائرى الراحل مالك بن نبى . . وهذه الكلمات أو «الأوسمة» التى يضعها على صدرها جاءت كلها فى مذكراته التى أصدرها بعنوان «شاهد على القرن» .

فأثارت اهتمامى بها ، وشغفت بتتبع «آثارها» عبر صفحات الكتاب الضخم ، وكلَّما وجدت إشارة إليها فى إحدى الصفحات وضعت تحتها خطوطًا بالقلم الرصاص . . حتى انتهيت من قراءة

الكتاب، الذى يقع فى 428 صفحة من القطع الكبير . . فوجدت أمامى صورة شبه كاملة لشخصية هذه الزوجة المبدعة . . وتمنيت لو كان مالك بن نبى قد كتب عنها المزيد لتكتمل صورتها فى مخيلتى ويزداد حبى وإعجابى بها على البعد!

تأسرنى دائمًا صورة الزوجة الشابة المحبة المخلصة التى تتحمل مع زوجها صعوبات البداية، ويمضيان معًا على الطريق، محتمين بحب كل منهما للآخر و«إيمانه» به فى مواجهة تحديات الحياة التى تعترض طريقهما، ومن عاداتى «السرية» أن أتأمل دائمًا هذه الصورة الإنسانية لزوجين شابين فى بداية حياتهما . . وأتابع بإشفاق صمودهما أمام التحديات . . ولحظات القوة والضعف البشرى التى قد تعتريهما معًا أو تعترى أحدهما فى بعض المواقف أو الاختيارات، و«أكتئب» للحظات التى تشتد عليهما فيها قسوة الظروف . . وأبتهج للحظات انفراج الأزمات حين يتصوران أن حلقتها قد ضاقت حولهما . . ولم يعد هناك أدنى أمل فى انفراجها . . و«أستبشر» بكل خطوة نجاح يحققها الزوجان فى حياتهما معًا . . وتترطب حياتهما الجافة ببعض لمسات الراحة والرخاء بعد طول حرمان، إلى أن تصل السفينة فى النهاية إلى شاطئ الأمان بعد ملاحة صعبة فى بحر المعاناة . . ويحقق الزوجان طموحهما فى الحياة، ثم يلتفتان فى لحظة التقاط للأنفاس إلى الوراء . . ويقيسان المسافة من البداية الصعبة . . إلى نقطة الأمان

فيجدانها طويلة . . وشاقة . . وممتعة . . وعامرة بالحب والكفاح والعطف المتبادل بينهما .

ويسلم كل منهما للآخر - بينه وبين نفسه وأمام الجميع - بأنه لولا دوره المهم فى حياته . . ولولا مساندته النفسية والعاطفية له و«إيمانه» به حتى فى أحلك اللحظات . . لتحطمت السفينة على الصخور، ولرفع الراية البيضاء متنازلاً عن أحلامه وطموحاته فى الحياة منذ زمن طويل .

وأتصور أن هذا بالضبط ما كان يراود مالك بن نبى ، وهو يكتب مذكراته هذه فى عام 68، عقب استقالته من منصبه كمدير عام للتعليم العالى فى بلاده . . وهو منصب حكومى يماثل تقريبًا منصب وزير التعليم . . مفضلاً التفرغ للعمل الفكرى بعد أن توافرت له إمكانيات الحياة المريحة التى تتيح له ذلك، فسال قلمه بهذه الكلمات الجميلة عن زوجته تقديراً لدورها فى حياته واعترافًا بفضلها!

ولم تكن «خديجة» هذه فتاة جزائرية ولا عربية . . وإنما كانت فتاة فرنسية . . تعرّف عليها مالك بن نبى خلال سنواته الصعبة بباريس فى أوائل الثلاثينيات ، حين كان يدرس بمدرسة اللاسلكى ويتلقى دروسًا مسائية فى الميكانيكا والهندسة . . ويعيش ببضعة فرنكات يرسلها إليه أبوه الموظف الصغير من الجزائر .

وقد ظهرت «خديجة» لأول مرة فى مذكراته فى الصفحة 236 من كتابه . . وفى إشارة مختصرة لا توضح ظروف تعرفه بها ولا كيف تزوجها وهو طالب جزائرى فقير لا يبشر مستقبله فى ظل الظروف السائدة بأى خير . . ولم يزد مالك بن نبى فى تأريخه لزواجه عن قوله فى مذكراته : «كان اليوم يوم جمعة من عام 1931 ، وقد تولى الله الأمر فهدانى إلى زوجتى وهداها هى فتسمَّت باسم خديجة وتولت على الفور زمام حياتى المادية فى البيت» .

ثم توالت بعد ذلك إشاراته المتناثرة إليها فى صفحات الكتاب . . وقد تزوجها بغير علم والديه اللذين أشفق عليهما من زواجه من فرنسية تنتمى للشعب الذى يستعمر بلادهما . . وفى الوقت الذى كانت والدته الحنون فيه قد أعدت له بيت الزوجية فى بيت الأسرة ببلده «تبسة» ورجعت من الأراضى الحجازية بهدايا له ولزوجة المستقبل وللأبناء الذين سيجيئون من عالم الغيب بعد الزواج . . فظل يتكتم زواجه عن أبويه عدة سنوات إلى أن فوجىء برسالة من والدته الطيبة تقول له فيها : لماذا لا تعود لقضاء الشتاء فى بلدك وتحضر معك زوجتك لتستمتعا معًا بدفء الجو فى بلادنا بدلاً من الشتاء القارس فى باريس؟ !

ويتوقف مالك بن نبى أمام الرسالة متأملاً ومتعجبًا . . ويفيض قلبه بالحب الصادق والعرفان لوالدته الطيبة . . وقد كانت «المرأة الأخرى» فى حياته ، التى ساهمت فى تشكيل وجدانه . . وساندته

بحبها العظيم فى كفاحه . . ولم تفقد «إيمانها» به لحظة . . ورغم أنها غادرت الحياة وهو لم يضع أقدامه بعد على أول طريق النجاح .

وبعد وفاتها ـ وهو غائب عنها فى فرنسا ـ لاحظت خديجة عليه أنه قد ظل لعدة سنوات بعدها يبكى خلال استغراقه فى النوم ، ويستيقظ فى الصباح فيجد وسادته مبللة بقطرات من الماء دون أن يعرف سببًا لذلك ، حتى فسرته له خديجة وهى تواسيه وتخفف عنه وتزداد له حبّا وإعجابًا بوفائه لأمه .

وخلال سنوات إقامته فى باريس حاول مرارًا أن يجد عملاً ينفق منه على نفسه وزوجته ، فلم يجد إلا الأبواب الموصدة أمامه وأمام غيره من أبناء بلده المستعمر .

وكان يجمع بين الدراسة فى معهد اللاسلكى والدراسة الليلية للهندسة والميكانيكا وبين العمل الفكرى والاهتمام بقضية بلاده . . وقضية الدين فى مواجهة طوفان محاولة طمس الهوية الجزائرية . . أما خديجة فقد راحت «تتفنن فى توفير وسائل الراحة لى فى البيت حتى من الناحية الفكرية» .

وأما البيت الذى يقصده فقد كان وقتها غرفة مفروشة بلا ماء ولا حمام . . ويشتركان مع بقية سكان المبنى فى صنبور للماء وحمَّام وحيد للجميع ، ورغم ذلك ـ وكما يقول ـ «فلقد لبثنا طويلاً نستنشق عبير هذه السعادة البسيطة الجادة فى حياتنا» .

وكان مالك بن نبى يستقبل فى مسكنه مساء كل جمعة صديقين له من أبناء بلده المهتمين مثله بالعمل الوطنى، فيتناولان معه العشاء ويتفرغان بعده للتداول فى شئون بلدهم وقضية الدين.

وكانت زوجته - كما يقول - «تصنع المعجزات خلال أيام الأسبوع لكى تدَّخر تكاليف هذه المائدة الأسبوعية.. فتصنع لنا أكلة من العدس ولسان الضأن تجيد صنعها تمامًا.. لترضى الضيوف بأقل التكاليف، فكنَّا - والحق يقال - نلتهمها التهامًا - وبعد العشاء تبدأ جلسة العمل، فتجلس زوجتى فى ركنها المفضل بالغرفة بعد أن تقدم لنا القهوة.. وتجلس قطتنا «لويزة» فوق ركبتها، بينما تستأنف خديجة أشغال الإبرة وهى تتابع مناقشاتنا فى صمت.. وكانت لصديقى «حمود» عادة غريبة هى أن يضع قطعة من السكر فى فنجان القهوة ويظل يحرِّكها بالملعقة طوال فترة حديثى إليه، فإذا تحدث هو توقف عن تحريك الملعقة، ثم أعود للكلام فيضع - دون أن يشعر - قطعة سكر جديدة ويحركها.. وهكذا طوال المساء دون أن يشرب القهوة، وكان ذلك يمتعنى إلى حد كبير؛ إذ كنت أتخيَّل «مشاعر» زوجتى الجالسة فى الركن وهى ترى قطع السكر تذوب واحدة بعد الأخرى فى فنجان القهوة بلا فائدة.. مما يتعارض مع مبادئها فى التدبير والاقتصاد.

وكان محور مناقشات مالك بن نبى مع ضيفيه، ومع غيرهما من أبناء بلده، هو الأصالة.. والتمسك بالإسلام فى مواجهة طوفان

التغريب وزلزلة القيم الدينية الذى يمثله الاستعمار . وقد انتهى من بحثه الفكرى الطويل إلى حقيقة . . حرص على تأكيدها والدفاع عنها معظم سنوات حياته وهى : أن كل مجتمع يفقد حضارته يفقد بذلك كل أصالة له في التفكير ، أو فى السلوك أمام أفكار الآخرين ، وبالتالى فإنه يتقبل أفكارهم دون مراجعة أو تدقيق ويقلِّد سلوكهم دون تروٍّ أو اختيار .

وكانت خديجة تشاركه الإيمان بهذه الحقيقة وتدافع عنها بإخلاص . . وقد اصطحبت زوجها إلى الريف الفرنسى لتعرِّفه بأمها الأرملة وزوجها . . فكانت فرصته الحقيقية لكى يعرف الوجه الأصيل للحضارة الفرنسية ، التى كان يتخذ منها موقفًا عدائيّا قبل أن يتعرف عليها فى منابعها الأصيلة . . ويلمس قيمها الأساسية فى الجدية والعمل والحياة والعلاقات الإنسانية وإعلاء قيم التفكير المنطقى وتذوق الثقافة والجمال والنفور من كل ما يسىء للذوق .

ويروى مالك بن نبى - فى هذا الصدد - واقعة طريفة عن زوجته . . ففى إحدى رحلاتها بين فرنسا والجزائر ، طلب منها رجل الجمارك أن تفتح حقيبتها أمامه ليفتشها . . واستجابت لطلبه . . فما أن شاهد الموظف ترتيب محتويات الحقيبة الدقيق والجميل أيضًا حتى رفض أن يدس يده فيها ويشوه ترتيبها الرائع وقال لها : أغلقى حقيبتك يا سيدتى . . فلست أستطيع أن أفسد هذا التكوين الجميل !

وكان من برنامج يومه خلال إقامته مع زوجته فى باريس أن يعود فى المساء عقب انتهاء دروس المدرسة ، فيجلس مع زوجته بعض

الوقت يشربان الشاى ويتجاذبان أطراف الحديث حول القضية الجزائرية . . أو الدين، ثم يصلى المغرب ويتلو من المصحف بعض آيات الذكر الحكيم، «فكان يروق لخديجة أن تستمتع لما أتلو من القرآن دون أن تفهمه بطبيعة الحال . . لكنها كانت تتذوق جَرْس القرآن نفسه، وقد يحدث أن تطرح سؤالاً فى الدين كسؤال المريد المبتدئ لشيخه . . أو تلفت انتباهى للقيم الأخلاقية المشتركة بين الإسلام والمسيحية . . أو تلفت نظرى إلى أشياء قد تبدو بسيطة ولكن لها دلالتها . . فلقد لفتت نظرى أكثر من مرة إلى أن قطتنا «لويزة» حين تقفز إلى المائدة، وتسير فوقها لتذهب إلى خديجة فى الناحية الأخرى، والمصحف مفتوح على المائدة بيننا، فإنها كانت تتجه دائمًا إلى يمينه أو يساره كأنما تتفادى عن عمد أن تضع أقدامها على المصحف . . وهى فى طريقها إلى ركبتى سيدتها!»

ومع أن خديجة كانت تعيش مع قطتها «لويزة» أكثر ممًّا تعيش معه، كما يعترف هو بذلك. بسبب فترات دراسته الصباحية والمسائية. وفترات استذكاره الطويلة فى الليل حتى الثانية صباحًا كل ليلة . . وفترات صمته الطويل . . ومعاناته مع العلوم الرياضية، التى كانت تصل به أحيانًا إلى حد البكاء حين يحتدم الصراع بينه وبين مسألة رياضية معقدة فإنها لم تشك قط من وحدتها ولا من جفاف حياتها وخلوِّها من أى ترويح أو تسلية . . ولا أيضًا من قلة الأوقات التى يتفرغ لها فيها زوجها، وإنما كانت تتركه ليصارع

دروسه الرياضية على المائدة الوحيدة بالغرفة . . وتجلس هى فى ركنها المفضَّل من الغرفة وقطتها فوق ركبتيها وتشغل وقتها «بمصارعة» كتاب بالفرنسية عن الدين . . أو بتطريز مفرش صغير . . أو صنع بلوفر شتوى لزوجها أو لنفسها أو حتى لقطتها . . وقد احتاج زوجها ذات يوم إلى مقابلة مسئول فرنسى سعيًا وراء الحصول على عمل مناسب له . . ولم تكن لديه بدلة لائقة لمثل هذه المقابلة . . فلم تدعه زوجته لهمومه طويلاً ، وإنَّما خرجت على الفور واشترت بمعظم مصروف البيت قطعة قماش صوفية رخيصة من سوق الفضلات . . وبجرأة ، تحسدها عليها كثيرات ، نقلت عن مجلة أزياء قديمة «باترونا» لبدلة رجالية . . ثم أعملت مقصها فى القماش وخاطته على ماكينتها . . فإذا بالقماش يستوى بدلة رجالية لا بأس بها . . ارتداها زوجها وهو لا يصدِّق نفسه . . وذهب إلى المقابلة ، التى لم تسفر عن تحقيق أمله ، لكنها كشفت له عن موهبة جديدة ودفينة من مواهب زوجته المحبة .

كذلك أيضًا لم تشك خديجة من طول فترات صمت زوجها المهموم بدراسته ومشاكله وقضايا بلاده ودينه . . وإنما أشفقت عليه منها وأرادت أن تدفع عنه الاكتئاب قبل أن يتمكن منه . . فألحَّت عليه أن يتوقف عن الاستذكار مساء كل سبت ، وأن يخرج إلى أصدقائه فى الحى اللاتينى . . ليروِّح عن نفسه ، ويتسلَّى معهم بعض الوقت عن جفاف الحياة وعناء الدراسة المتواصل طوال الأسبوع . .

ويستجيب الزوج الشاب «لرجائها» إرضاءً لها ويخرج إلى أصدقائه ويترك وراءه زوجته فى الغرفة المفروشة الفقيرة التى أحالتها زوجته بلمساتها الساحرة إلى واحة للذوق الجميل . . والحب الدافئ المعطَّر بأنفاس المشاركة والوفاء والعطاء .

وتظل خديجة دائمًا مع زوجها تخفف عنه عناء الحياة وتشد من أزره كلَّما ضعف أو ضاق بالأزمات المستحكمة حوله . . و«تؤمن» به دائمًا فى أصعب الأوقات، وتؤكد له إيمانها الذى لا يتزعزع، بأنه على حق فى موقفه من الحياة ومن كل ما يؤمن به من مبادئ وأفكار . . وتوغل السفينة فى بحر العناء وتصمد لكل العواصف والأنواء . . إلى أن تصل سالمة فى النهاية إلى شاطئ الأمان، ويحقق مالك بن نبى ما كان يراوده، وهو شاب صغير فقير من أحلام، لخدمة مجتمعه وبلاده والفكر العربى . . ويجلس ليكتب مذكراته، فتطل عليه من الأوراق صورة زوجته المحبة العطوف!

ألا ترانى محقّا بعد ذلك فى «حبى» لخديجة هذه . . ولكل «خديجة» مماثلة تبدع مثل إبداعها . . وتؤمن دائمًا بزوجها وتؤدى فى حياته نفس هذا الدور العظيم .

تذكـرْ أنـك إنســان !!

مؤكـد أننى فى حاجة لمن يفسر لى هذا التناقض ! فقد عـجزت أنا عن فهمه وتفسيره! فأنا أنبهر بالأدباء والمفكرين والفنانين العظام، وأتابع أعمالهم بشغف . . وأتسقط أخبارهم باهتمام، لكنى أبدًا لا أحاول الاقتراب منهم على المستوى الشخصى أو التعرُّف عليهم، ثم أندم كثيراً على ما فاتنى من فرص الاقتراب منهم. وأحاول تعويض ذلك بعد رحيلهم عن الحياة بزيارة بيوتهم عندما تتحول إلى متاحف ورؤية متعلقاتهم الشخصية . . وأوراقهم وأقلامهم وأدواتهم الفنية!

فهل عندك تفسير لهذا التناقض العجيب ؟!

لقد عشت ـ مثلاً ـ عصر أم كلثوم . . ورأيت الناس من حولى يعيدون ترتيب حياتهم يوم حفلتها الشهرية فى الخميس الأول من كل شهر . . ويستعدون للسهر مع صوتها فى الراديو بالنوم وقتًا كافيًا بعد الظهر وإعداد عشاء جيِّد واستقبال الإخوان والأصدقاء للمشاركة فى جلسة الاستماع . . وشاركت فى بعض هذه

الأمسيات، وأحببت صوتها كثيراً، ومع ذلك فلم أحضر حفلة واحدة من حفلاتها . . مع أن تذكرة دخولها كانت فى مقدورى . . ومع أنى عملت بعد ذلك بالصحافة وأتيحت لى فرصة حضور أكثر من حفلة . . ولم أسعَ مرة واحدة لإجراء حديث صحفى معها ولو بالتليفون، مع أنى من عشاقها والمبهورين بموهبتها الفذة وشخصيتها «الزعامية» الفريدة!

وأحببت العقاد العملاق، وقرأت له كل أعماله وانبهرت بثقافته الموسوعية وشخصيته القوية الطاغية . . وكان لى فى شبابى صديق من مريديه يقسم الناس إلى قسمين: عقاديين؛ أى من تلاميذ العقاد ومحبيه، وغير عقاديين؛ أى من خصومه وكارهيه! وكان يذهب إلى ندوته الأسبوعية ببيته بمصر الجديدة صباح يوم الجمعة وينام مبكراً مساء الخميس ليكون أوَّل الذاهبين، ولا يغادر ندوته إلاَّ مع نهايتها فى الثانية بعد الظهر . . ويظل طوال الأسبوع يروى لى عن وقائع الندوة . . وماذا قال «الأستاذ»، وكيف علَّق على الأحداث الجارية، وكيف أطلق نكتة عبقرية لا يقولها سواه ولا يفهمها إلا أصحاب العقول الجبارة مثله، فأسمع له باهتمام شديد . . وأستحثه ليحكى لى كل التفاصيل . . ثم يدعونى للذهاب معه إلى ندوة الأستاذ . . فأتردد، ثم أحجم وأعتذر!

ومنذ صباى المبكر، وقعت فى غرام صوت موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، وكنت أعلِّق صوره على جدران غرفتى، وأتتبع أحاديثه فى الإذاعة وأقرأ أخباره الشخصية كما أقرأ أخبار

صديق حميم . . وأضحك من أعماق قلبي لما يُروى عنه من تشنيعات ونوادر على بخله وخوفه الشديد من المرض، ووسوسته العجيبة . . وعن الإناء الذى يضعه وراء باب شقته وفيه المطهِّرات ليغمس فيها يديه كلما عاد من الخارج خوفًا من الميكروبات، ومع ذلك فلم أسع مرة واحدة للاتصال به تليفونيّا، أو إجراء حديث صحفى معه، أو زيارته فى بيته مع أنه أتيحت لى الفرصة أكثر من مرة، وكان آخرها فى باريس منذ سنوات، وكان وقتها يقيم فى فندق الكريون ودعانى صحفى صديق يقيم فى باريس للذهاب إليه لإجراء حديث معه لعلمه بحبى الشديد له ففوجئ بترددى واعتذارى . . ثم اتصل به تليفونيّا ليستأذنه فى المجىء إليه حسب الموعد المحدد، فرجاه عبد الوهاب تأجيل الموعد لليوم التالى وبرر ذلك له بالحرف الواحد :

ـ لأن الطبيب أعطانى اليوم حقنة . . ولا أعرف . . بِعد الشر . . بِعد الشر . . حتعمل فىَّ إيه !

فظللت طوال إجازتى فى باريس أضحك لهذه العبارة، وأرويها لأصدقائى هناك ولا أفكر فى زيارته بالفندق أو رؤيته!

وفُتنت منذ صباى بأدب نجيب محفوظ، وقرأت كل أعماله أكثر من مرة واستمددت منها جزءًا كبيرًا من ثقافتى، ورؤيتى للحياة، وفتنت أكثر بشخصيته الأمينة مع الحياة والمتواضعة، والتى تلخِّص حياته كلها فى عبارة واحدة هى : حياة شريفة هادفة . وكنت أراه عن

بعد فى مقهى ريش بوسط المدينة يجلس بين تلاميذه وأصدقائه ومريديه، فأنظر إليه ـ على البعد ـ بامتنان شديد وحب، ثم يدعونى أصدقائى للانضمام إلى مجلسه ويؤكدون لى أنه يُرحب بالجميع . . فأتردد وأعتذر فلم أصافحه لأول مرة إلا بعد عشرين سنة حين قدّمنى له صديقى أحمد بهجت فى الأهرام ذات يوم، وقال له إننى من كبار «دراويشه»، فضحك كثيراً لهذا التعبير وأشعرنى بدفء ترحيبه وحبه للجميع، وفيما عدا ذلك لم أسع إلى ندوته ولا إلى الاتصال به، إلى أن فاز بجائزة نوبل وفاجأنى بأن أودع نصيبه منها فى بنك مصر، وجعله هبة يصرف عائدها لبريد الأهرام، وفوضنى فى توجيهه كل سنة إلى إحدى جهات الخير، ولم تزد اتصالاتى التليفونية به ـ بعد ذلك ـ عن اتصال أو اثنين كل سنة حين نتلقى عائد الهبة، فأسأله عمَّا إذا كان يريد توجيهه لجهة معينة هذا العام، فيخجلنى بأدبه الجم ويفوضنى فى ذلك نيابة عنه .

وقرأت معظم أعمال توفيق الحكيم . . وأحببته كثيراً فى صباى وشبابى، وكنت وصديق لى نتبادل الحديث فى صبانا عمَّا نقرأه فى الصحف عن نوادره الشخصية وشائعات بخله وخفة ظله، كما لو كنَّا نتحدث عن صديق مشترك لنا فى مثل سننا ونضحك لها، ونتخيل جلساته مع كامل الشناوى ومصطفى أمين ود. حسين فوزى، ونتحسَّر على المتعة الذهنية والعقلية التى يمكن أن نستمتع بها لو أتيحت لنا فرصة حضور مجالسه، ثم عملت بالأهرام،

فأصبحت أراه داخلاً إلى مبنى الأهرام، فأفسح له الطريق حبًّا واحترامًا، وأركب معه المصعد أحيانًا ومع ذلك لا أحاول اقتحامه أو الاقتراب منه ولا يزيد حديثى إليه عن تحية الصباح التى يردها بأدب، وكنت أفعل ذلك استجابة لطبيعتى واحترامًا لما سمعته عنه من عزوفه عن الكلام مع الغرباء.. وحبه للصمت والاستسلام لشرود الذهن.

وقد عرفت أنه قد يمضى الساعات بين أصدقائه بلا كلام إذا لم يجد رغبة فيه، ثم اصطحبنى إلى مكتبه ذات يوم صديقى أحمد بهجت ليجرى معه حديثًا صحفيًّا عن أم كلثوم، فاكتشفت أن هذا الفنان الصامت تفاجئه أحيانًا نوبات كلام إذا استشعر الألفة والمودة فينطلق فى الكلام لفترة طويلة يخلب خلالها لب من يسمعه بخفة ظله وتعليقاته الذكية وثقافته العميقة.. وقد رشفت منها ذلك اليوم لمدة ساعتين، ثم نهضنا للانصراف، فإذا به يشكر أحمد بهجت؛ لأنه أتاح له فرصة الحديث مع «جيل الشباب»، الذى كنت أمثله وقتها! وكانت المرة الأولى والأخيرة التى أحدثه فيها وأستمع إليه مع أنى عاصرته فى الأهرام نحو 25 سنة، ورأيته خلالها داخلاً أو خارجًا مئات المرات وهذا ما يحيِّرنى حتى الآن!

وكمعظم أشخاص جيلى، سحرتنا شخصية طه حسين ومواقفه الفكرية ودفاعه عن الثقافة والتنوير ضد جحافل الظلام والجهل، وتلقينا من أدبه وكتبه ودراساته أول زادنا الثقافى والفكرى، وحين التحقت بقسم الصحافة فى كلية الآداب، جامعة القاهرة، فى

أواخر الخمسينيات، كان يلقى محاضرة أسبوعية فيها على طلبة قسم اللغة العربية بمدرج 73 يوم الثلاثاء من كل أسبوع، لكن المدرج كان يضيق بطلبة الأقسام الأخرى وبالوافدين من خارج الجامعة لسماع طه حسين، فحاولت أكثر من مرة، دون جدوى حضور هذه المحاضرة إلى أن نجحت ذات مرة واحتللت مكانًا فى مقاعد المدرج الأولى لأراه عن قرب، فرأيته بعد قليل يدخل فى صحبة سكرتيره العنيد «فريد شحاته»، الذى ساعده فى الجلوس على المنصة. ورأيته نحيلاً وسيمًا يرتدى ربطة عنق سوداء.. لا أدرى لماذا، ثم بدأ الكلام بصوت خافت، فإذا بالقاعة الصاخبة تصمت.. حتى لتسمع صوت الإبرة فيها.. وإذا بمحاضرته تمضى فى لمح البصر.. فما دريت إلاَّ بصوت طه حسين وهو ينهيها مودعًا تلاميذه، ثم ينصرف فى صحبة سكرتيره ومن حولهما زحام من كل الطلبة تقريبًا، خرجت وقابلنى زميل فسألنى: فيم كان يحاضر طه حسين اليوم؟

فأجبته ذاهلاً: لم يكن يحاضر وإنما كان يغرد.. وقد غرَّدنا اليوم.. عن حافظ إبراهيم!

ومع ذلك فلم أسعَ، حين عملت بالصحافة إلى إجراء أى حديث صحفى معه كما فعل زملاء كثيرون لى، ولا إلى الاتصال به تليفونيًا، ناهيك عن محاولة زيارته ورؤيته والاستماع إليه عن قرب وحين تردد الحديث عن قرب تحويل بيته فى الهرم إلى متحف يضم

متعلقاته وغرفة مكتبه ومكتبته . . تعجلت الافتتاح حتى أزوره وأتنفس الجو الذى تنفسه وعاش فيه عميد الأدب العربى . . فهل من تفسير لهذا التناقض؟

أما عبد الحليم حافظ . . فلقد أحببته كمعظم شباب جيلى . . وارتبطت أغانيه الرومانسية بذكرياتنا الشخصية حتى أصبح بغير جدال «مؤرخنا العاطفى»، ورأيته لأول مرة فى مبنى الأهرام القديم عقب نكبة يونيو؛ يزور رئيس تحرير الأهرام الأسبق المرحوم على الجمال حين كان مديراً للتحرير . . ليسأل عن الأخبار، ويتحسر على ما جرى لنا . . ورأيته واجمًا حزينًا مشروخًا كالجميع بسبب الهزيمة الفاحشة، ثم رأيته فى مبنى «الأهرام» الجديد . . بعد ذلك يزور الأستاذ هيكل رئيس تحرير الأهرام وقتها . . ويجلس فى مكتب المرحوم كمال الملاخ ويتناول الغداء فى مطعم الدور الثانى عشر بالمبنى مع عدد كبير من صحفيى الأهرام . . ومع ذلك فلم أتحدث معه، ولم تزد صلتى به عن تحيته كلما رأيته، وتألمت لوفاته غريبًا فى بلاد غريبة، معذبًا بالوحدة والمرض والحسرة على العمر القصير الذى ضاع فى المرض والآلام.

وتعجبت منذ فترة قصيرة لمفارقات الحياة حين علمت أن مرضه الذى أودى به أصبح يعالج الآن بسهولة ويسر، فعرفت أنه كان «محبوب الأقدار» فاختارته لأن تكون حياته قصة ألم طويلة . . وقصة سعادة قصيرة . . ومنذ شهور نظمنا فى مجلة الشباب زيارة

لقرّاء «الشباب» إلى مسكنه بترحيب وموافقة من شقيقته الفاضلة الحاجة علية شبانة، وأعلنّا عن ذلك فى المجلة، ففوجئت بآلاف الخطابات يطلب أصحابها إتاحة هذه الفرصة لهم. . بل وفوجئت بزملاء محررين ومحررات فاتوا سن الشباب يستأذنوننى فى الذهاب مع قرّاء «الشباب» فى هذه الزيارة التى سميتها حين نشرنا التحقيق: زيارة إلى الماضى الجميل! ولولا ارتباطى بعمل ضرورى فى موعدها لكنت أول الذاهبين.

لقد عجزت عن فهم سبب تهيبى مقابلة الأدباء والمفكرين والفنانين العظام الذين أحبهم وأعشق أعمالهم، وحاولت تفسيره بأنه ربما يكون لأنى أشفق على نفسى من أن تختلف الصورة المثالية الجميلة التى رسمتها لهم فى خيالى. . عن الواقع الذى يعيش فيه البشر بقسوتهم وضعفهم فأوثر أن أحتفظ بهذه الصورة الجميلة فى خيالى، وأكتفى بحبهم على البعد، مع أن عددًا كبيرًا منهم أثبتت التجربة أن واقعهم أفضل وأجمل من صورتهم فى الخيال!

ومع ذلك تغلبنى طبيعتى التى لا أملك لها تغيرًا فى التعامل معهم. . فأظل أفضِّل الرؤية عن بعد، محاذرًا أن تمس صورتهم فى خيالى. . أية شائبة ولو كانت من شوائب الاعتياد وضعف الإحساس تدريجيًا بعظمتهم وتفردهم نتيجة لاعتياد القرب منهم ورؤيتهم، فآفة البشر أنهم يفقدون تدريجيًا الإحساس بقيمة الأشياء إذا اعتادوا رؤيتها كل يوم والرؤية تكون أوضح وأجمل دائمًا عن

بعد، أما الاقتراب الشديد فيطمس أحيانًا بعض معالم الصورة التى لا ترى بوضوح إلاَّ من مسافة معقولة تمامًا كما نفعل حين نشاهد لوحة جميلة معلَّقة على الحائط، فنرجع إلى الخلف بضع خطوات لنستوعب تفاصيلها وصورتها الشاملة!

لهذا كله قد لا تكون طبيعتى هذه شديدة الغرابة، لكن الغريب حقّا هو أننى رغم تهيبى للاقتراب من المفكرين والأدباء والفنانين العظام لا تهيب الاقتراب من الشخصيات العامة والتاريخية فى مجال السياسة، وقد أتيحت لى الفرصة - خلال عملى الصحفى - لمقابلة عدد لا بأس به من الملوك ورؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات والوزراء فى العالم العربى وأوروبا وأفريقيا، فلم ألحظ على نفسى تهيبى للقائهم.. ولا وجلى منه، وحاولت فهم السبب فى ذلك، فأرجعته - بعد تفكير - إلى أننى قد مارست العمل الصحفى وعمرى 17 عامًا، ودخلت مكاتب وكلاء الوزارة حين كان لكل وزارة وكيل واحد عتيد يمسك مقاليدها فى يده بحزم ويرتجف أمامه كبار الموظفين.. فاعتدت ذلك وألفته وأنا فى هذه السن الصغيرة، ثم دخلت مكاتب الوزراء فى نفس السن فوجدتهم بشرًا كالبشر.. ففقدت بمرور الوقت وتكرار التجربة تهيبى تقريبًا للقاء أى مسئول كبير فى أى مكان من العالم.

وربما يكون السبب فى ذلك أيضًا هو أننى اعتدت احترام الإنسان مهما كان بسيط الشأن لمجرد أنه إنسان، كرَّمه ربه وجعله أكرم

الكائنات عليه، وقال عنه الشاعر الإغريقي سوفوكليس في «أنتيجون»:

«إن العالم مليء بالمعجزات.. لكن أكثرها إعجازًا هو الإنسان نفسه!» لهذا فلم أجد صعوبة في احترام «الكبار» أيضًا كما أحترم الصغار.. ولكن دون أن يعوقني التهيُّب عن التواصل معهم. قد يكون كل ذلك هو السبب، وقد يكون كذلك أني أؤمن إيمانًا لا حيلة لي في تغييره بأن كرامة الإنسان الحقيقية هي في التزامه الخلقي وموقفه من الحياة وعطائه بشرف لها، وليس في منصبه مهما علا هذا المنصب.. أو ارتفع.. وأن العظمة الحقيقية هي فيما تثمره العقول وينعكس على حياة البشر بالخير وليس في القدرة على النفع أو الضرر.. وربما يكون السبب كذلك هو أنني قرأت في تاريخ الرومان أن الناس قد هتفوا ذات يوم لقائد ظافر أحاطوا بمركبته مهللين، فمال عليه خادمه وقال له:

- تذكرْ أنك إنسان!

أي تذكر أنك مهما كنت قائدًا عظيمًا ومنتصرًا، فأنت في النهاية إنسان ضعيف تستطيع أن تقتله بعوضة حقيرة ناقلة للمرض، فلا تستسلم للغرور ولا للكبر ولا للتعاظم على بني البشر.. فالجميع سواء في النهاية.. والكل إلى زوال ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام.

فهل يفسر كل ذلك هذا التناقض العجيب في شخصيتي، أم أن عندك أنت تفسيرًا آخر!

أعطِ الصباح فرصة!

في قصة لقصاص إنجليزي معاصر . . التقى ثلاثة أشخاص يائسون من الحياة، على غير موعد فوق جسر لندن الشهير في ظلام الليل.

جاء كل منهم من طرف من أطراف المدينة مهمومًا بمشاكله ويائسًا من أي حل لها، ووقف فوق الكوبري ينتظر أول فرصة يخلو فيها من المارة . . لكي يلقي بنفسه في مياه النهر، ويدفن آلامه ومتاعبه فيها . . وراح كل منهم يراقب المارة . . ويحرص على ألا يستريب الشرطي في نيته للانتحار فيعتقله ويفوِّت عليه الفرصة الثمينة . . وأشعل كل منهم سيجارة . . راح ينفث دخانها بشدة وهو يجتر أحزانه . . وابتعد الشرطي عن المكان . . وتوقف المارة عن العبور مع اشتداد الظلام والبرد، لكنَّ ثمة ضوءاً خافتًا ينبعث من جمرة سجائر الأشخاص الثلاثة المتفرقين . . يزعج كلٌّ منهم الآخريْن لكن الانتظار يطول وجمرة السيجارة مازالت مشتعلة . .

ويتنبه كل منهم فجأة وبإحساس غامض إلى أن الشخصين الآخريْن تراودهما نفس الفكرة، وينتصًف الليل والثلاثة مازالوا في

مواقعهم، ويضيق الجميع بالانتظار، ويقرر كل منهم أن يطلب من رفيقيه الابتعاد لكيلا يفسدا عليه خطته. ويقترب الثلاثة من بعضهم ويسأل كل منهم الآخر عن سبب وجوده فى هذا المكان الموحش فى ظلام الليل.. ويعترف كل منهم للآخر بعد حوار قصير بالسبب الحقيقى لوجوده.. ويرجو صاحبيه الانصراف فى هدوء ـ ونكتشف من الحوار أن الأول شاب عاطل عن العمل.. طالت فترة بطالته وتراكمت عليه الديون، وتأخر فى دفع إيجار شقته وفواتير الغاز والكهرباء، ويئس من تغيير الحال فقرر الانتحار.

ونعرف أن الثانى رجل متوسط العمر أصيب بمرض خطير.. وصارحه الأطباء بخطورة مرضه لكى يستنفروا إرادته للمقاومة فلم يقاوم، وقرر ألا ينتظر الأجل المحتوم وأن يسعى هو إليه باختياره.

ونتبيَّن أن الثالث كهل؛ لا يعانى من مشكلة مادية ولا مشكلة صحية، لكنه متزوج من زوجة تصغره فى السن.. تخدعه وتلتقى بشاب مثلها وتتذرع كل ليلة بمبررات مختلفة لتخرج للقائه وتتركه وحيداً يعانى من وحش الغيرة الذى ينهشه، ولا يجرؤ على مواجهتها بشكوكه، ولا يجرؤ أيضًا على طلاقها.. ويتبادل الثلاثة الحديث عن همومهم وقد جمعت بينهم الآلام، وأحس كل منهم بتعاطف غريب مع صاحبيه.. ويكتشف كل منهم أن لديه القدرة على أن يناقش مشاكل الآخريْن بمنطق جديد لم يفكر به فى مشكلته هو، فيقول الشاب العاطل للرجل المريض؛ ولماذا تحاول أن تتمرد

على أقـدارك وتضع بيـدك نهـاية لحيـاتك . . ولماذا لا تعطى الطب فرصته الكاملة لعلاجك وكل يوم يظهر الجديد فى الطب .

ويقول الرجل المريض للكهل المخدوع ؛ ولماذا تعاقب أنت نفسك على جريمة ترتكبها زوجتك الخائنة . . إنك تبدو لى رجـلاً متزنًا ولطيفًا فلماذا لا تنفصل عن هذه الزوجة التى لا تستحقك ، وتنظر إلى الأمام بتفاؤل إلى أن تلتقى بسيدة متوسطة العمر تحبك وتسعد بك؟ ويقـول الكهل المخدوع للشـاب العاطل ؛ وكـيف يسلم شـاب مثلك باليأس من الحياة بهذه السهولة مهما كانت الآلام والمتاعب . . لا شك أن هناك جهة ما تحتاج الآن إلى عملك لكنك لم تهتد إليها بعد . . وتستطيع بكل تأكيد أن ترجو صاحب البيت أن ينتظر شهرًا آخر إلى أن تتحسن أحوالك .

ويكتـشف الثـلاثة أنهم قـد أمضـوا سـاعة كـاملة فى حـديث أثار اهتمامهم ولـم يشعروا خلاله بالوحـدة والسأم وانعدام النصير ، كما كان كل منهم يحس قبل أن يتعارفوا .

وفى النهـاية يقول أحـدهم : حين وقفنـا على هذا الجسر ، كان كلٌّ منًّا لا يحس بشىء من حوله إلا بالظلام الموحش وبخرير الماء المفيض من النهـر . . لهـذا فـمن الطبيـعى ألاَّ يفكر إلاَّ فى مشاكله وحده وهو واقف فى مكانه فى ظلام الليل . . إذًا لماذا لا نعطى الصبـاح فـرصة أخرى لأن يطلع علينا بجديد قد يخفف بعض متاعبنا ، أو يساعدنا

على مواجهتها ، أو يفتح لنا بابًا جديدًا . ويفكّر كل منهم في اقتراح صاحبه فيجده منطقيًا ، إلى حد كبير ، ويتفق الثلاثة على أن يؤجلوا قرارهم بالانتحار لمدة يوم آخر على أن يلتقوا فى العاشرة من مساء اليوم التالى فى نفس المكان ، فإذا لم يكن قد تغيَّر أى شىء فى نفوسهم . أو فى ظروفهم ، نفذوا معًا قرارهم السابق بالانتحار . وينصرف الثلاثة على وعد باللقاء .

ويطلع النهار . . فيكتشف الشاب العاطل أن صاحب البيت الذى يقيم فيه ليس بالقسوة التى تخيله عليها وقد قبل رجاءه بالصبر عليه .

ونام الكهل المخدوع ليلته بغير أرق طويل على عكس الشهور الماضية ، وفى الصباح خرج إلى عمله وهو ينظر إلى زوجته نظرة جديدة يقول بها لنفسه لأول مرة ، العار هو عار من يغدر وليس عار المغدور به . . وحبك الذى كان يشل إرادتى ويشعرنى بالهوان معك ليس بالقوة القاهرة التى كنت أتخيله بها . . وسوف يأتى يوم قريب أتخلص فيه من ضعفى معك وأنبذك من حياتى . وجاء المساء فوجد الكهل نفسه حريصًا على الوفاء بموعده مع رفيقى الظلام واليأس ، واتجه إلى الجسر فوجد الشاب العاطل ينتظره ، فتبادلا التحية فى حرارة . . وتشاركا الحديث فى اهتمام ، وسأل كل منهما الآخر عمَّا جدَّ فى حياته وأفكاره ، واتفق رأيهما على أن متاعبهما ليست نهاية العالم ، وأن هناك ـ على سبيل المثال ـ من هو أكثر تعاسة منهما كالرفيق الثالث المريض بمرض خطير مثلاً . . لماذا تأخر؟

وتلفتا حولهما يبحثان عنه وهم يواصلان الحديث وطال انتظارهما له، ثم نظر كل منهما للآخر فى تفاهم صامت على أنه لن يجىء؛ لأنه رجع غالبًا إلى نفس المكان المظلم بعد انصرافهما منه فى الليلة الماضية واستسلم لليأس مرة أخرى فانطوت صفحة حياته . . وتأكدت ظنونهما بعد قليل حين سمعا الشرطى يحدث زميلاً له عن شخص يائس من الحياة ألقى بنفسه فى النهر من هذا المكان فى وقت متأخِّر من ليلة أمس . . وأطرق كل منهما فى أسف لما سمعاه، ثم رفع رأسه وحيًّا الآخر مودعًا وهو يتفق معه على اللقاء فى أحد نوادى المدينة مساء اليوم التالى .

وقبل أن ينصرف كل منهما فى اتجاه مختلف، يسأل الشاب صديقه الجديد :

ترى لماذا مات صديقنا بعد أن تفاهمنا أمس على تأجيل الانتحار؟

فيجيبه الكهل بعد تفكير قصير : لأنه تمسك بظلام الليل واليأس . . ولم يعط الصباح فرصة لكى يطلع حاملاً له أملاً جديدًا .

وتنتهى القصة الجميلة، وأجدنى أفكِّر فى العبارة الأخيرة المثيرة للتأمُّل . . وأتصور تلك النهاية البشعة لأى إنسان يواجه مشكلة

---

* حدث زلزال فى 12 أكتوبر عام 1992م، وقد صمد هذا الشاب تحت الأنقاض . . ومعه ابنته الصغيرة، إلا أنها لم تحتمل فماتت . . وكانت آخر كلماتها حينما بدأ صوتها يضعف هى . . بابا .

قـاهرة إذا تمسَّك بالظلام . . ولـم ينتظر ضـوء الصـبـاح الذى يطرد خفافيش اليأس من أعشاشها . وبهذه المناسبة هل تعرف لماذا صمد الشـاب «أكـثم*» للمـوت 82 سـاعـة تحت الأنقـاض بعـد الـزلزال الأخير؟ لقد فسَّر أول طبيب فحصه بعد إنقاذه هذه المعجزة الإلهية . . بأن إرادة الحياة داخل هذا الشاب كانت أقوى من الموت ، وأنه إنسان شديد التمسُّك بالحياة . . لهذا صمد وقاوم . . وعاش!

وأنا أفسرها بسبب جوهرى يسبق هذا السبب ولا يقلل من أهميته . . وهو أنه ـ من الأصل ـ لم تكن قد حانت بعد ساعته المسطورة فى اللوح المحفوظ من قبل ميلاده ، ولو كانت قد حانت لشارك غيره من الضحايا نفس المصير . . لسبب بسيط هو أنه ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ صدق الله العظيم* ، فإذا كان قد عاش . . فلقد عاش ؛ لأنه لا يلتقى أحد بأجله قبل موعده وإن كان قد خرج سليمًا معافى فلأنه ـ حقًّا وصدقًا ـ قد تمسك بإرادة الحياة ولم يفقد الأمل لحظة واحدة فى النجاة طوال هذه الفترة الطويلة فأعان نفسه بالأمل والإرادة على الصمود .

وهكذا ينبغى أن يفعل كل إنسان ، فالأبواب المغلقة لن تبقى مغلقة فى وجوهنا إلى مالا نهاية . . وحياة الإنسان من صنع إرادته وأفكاره ، والعاجز حقًّا هو من يهرب من مواجهة ظروفه إلى

---

* يونس : 49 .

الإحباط واليأس من أى أمل فى احتمال تغير الأوضاع إلى الأفضل ذات يوم، والحياة دائمًا يا صديقى تحب من يحبها . . وتكره من يكرهها، والبشر أيضًا يحبون من يحبونهم ويكرهون من يكرهونهم.

وليس من العدل أن يكره الإنسان الحياة، ثم ينتظر منها أن تعطيه كل ما يحلم به . . أو يكره الآخرين، ثم ينتظر أن يقعوا فى غرامه ويغدقوا عليه بالعطاء والتأييد والمساندة.

إن الانتصار الحقيقى لأى إنسان ليس فى أن يستثمر مكاسبه وأرباحه، وإنما الانتصار الأهم هو أن يحوِّل هزائمه وعثراته وخسائره الشخصية إلى نجاحات وانتصارات، وهو أن يؤمن دائمًا بأن الإرادة والكفاح والصبر على المكاره هى أسلحة الصباح لتحقيق الأمانى والأحلام وقهر خفافيش الظلام التى تجمع بين الهاربين من الحياة . .

فأعط الصباح فرصته دائمًا - يا صديقى - لكى يغيِّر الأحوال والظروف التى نشكو منها بجهدنا الدءوب، فقد نتغير نحن ونصبح أكثر قدرة على تحملها والتواؤم معها . . أو ربما نسعد بها أو أن نبدأ منها رحلة التغير.

فإذا كنت من هواة الصباح مثلى . . فقابلنى فى المساء فوق جسر الأمل . . وسوف تأتى بالضرورة فى موعدك لنتحدث فى شئوننا . . ونشد أزر بعضنا البعض . . ونتبادل المشاركة والتشجيع.

أمـا إذا كنت من هواة الظلام فلسـوف تـخلف وعـدك . . ولن أجدك فوق الجسر فى الموعـد المحدد . . ولن أندهش لغيابك . . لأن من لا يحـرص على نعـمة الحيـاة لا يستـحق أن تحرص عليه نعـمة الحياة . . ولا عجب فى ذلك ، فالحياة ، رغم كل آلامها ومتاعبها ، «ليـست أهلاً للازدراء» ، كـما قـال الأديب الروسى العظيم ديستويفسكى . . «واحترام المواعيد» من صفات النبلاء . . والناجحين فى الحياة .

.. هل تريد شيئاً؟

منذ أكثر من عشرين سنة، شاءت الظروف أن أرافق صديقًا لى فى المستشفى وهو يجرى عملية جراحية، كانت وقتها شديدة الإيلام نظراً للطريقة التقليدية التى كانت تتم بها. فأتيح لى أن أرقب عن قرب تجربة معاناة الإنسان مع الألم الذى يعجز عن احتماله، وتألمت لحال صديقى، وأشفقت من أن يأتى يوم اضطر فيه لمكابدة نفس آلامه، «فوعدت نفسى» ألاَّ أقبل أبدًا إجراء نفس هذه الجراحة ذات يوم، إذا هاجمتنى الآلام التى اضطرته لإجرائها. . وعاهدت نفسى أن أتحمل الألم، وأستعين عليه بصبر أيوب المبتلى، وأن أدعو ربى بدعائه حتى يكشف عنى الضر بغير حاجة إلى جراحة، كما كشفه الله عن عبده أيوب جزاءً وفاقًا لصبره وحسن عبادته. . وحسن تأدبه فى دعائه إليه، فلقد كان يدعو ربه حين طالت عليه آلامه: ﴿أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنت أرْحَمُ الرَّاحِمين﴾* ولا يجهر بمطلبه من ربِّه تأدبًا واحتسابًا وإيمانًا بأنه أعلم بما يريد وتهفو إليه نفسه،

* سورة الأنبياء: 83.

فاستجاب له ربه وكشف عنه الضُّر وقال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾* فركض الأرض بقدميه فتفجَّر منها ماء مسح به على جسمه فشفى مما أصابه بأمر ربِّه، وشرب منه فارتوى وطابت نفسه. وتعلقَّت بهذا الأمل طويلاً فشاءت الأقدار بعد عشرين عامًا من هذا «الوعد» أن أجرى ما هو أشد إيلامًا من جراحة صديقى هذا.. وأن أكتشف بعد إفاقتى من تأثير المخدِّر أن الجرَّاح الصديق الذى أجراها لى قد اكتشف خلال عمله فى الجراحة الأساسية حاجتى لتلك الجراحة إياها، فأجراها لى عرضًا ولم أشعر بشىء؛ لأنى كنت تحت تأثير المخدر، ولأنها أيضًا قد أصبحت الآن فى سهولة قص الأظافر، ولم تعد آلامها فوق الاحتمال كما كانت حين أجراها صديقى.

وتذكرت خلال أيام النقاهة - التالية لجراحتى الصغيرة - ما كان من أمرى مع هذا الصديق ومعاناته.. والدرس الذى خرجت به من ملازمتى له فى المستشفى خلال إقامته فيه.

فلقد أجرى له الجرَّاح عمليته فى الصباح الباكر، وأجرى لشاب آخر من الأقاليم نفس الجراحة بعده مباشرة.. ونقل كل منهما إلى غرفته، فرافق الشاب شقيقه الذى جاء معه إلى القاهرة، ولازمت أنا صديقى الذى كانت أسرته غائبة عن القاهرة وقتها.. وأفاق المريض القادم من الأقاليم من تأثير المخدِّر بعد قليل، فبدأت الآلام الوحشية تهاجمه بلا رحمة.. وبدأ يصرخ ويتأوه ويئن بلا توقف.. وشقيقه

---

* سورة ص: 42.

يتألم له ولا يملك شيئًا . . ويأمل أن تخفت الآلام بعد قليل، أو تصبح فى حدود الاحتمال البشرى، ولكن بلا جدوى . . فلقد تواصل صراخ المريض باستمرار، ولم يطق الشقيق صبرًا فخرج منزعجًا يبحث عن الجرَّاح ليفحص شقيقه فوجده قد غادر المستشفى . . فلجأ إلى الطبيب المقيم فطمأنه إلى أن هذه الآلام طبيعية بعد الجراحة وستستمر طوال اليوم إلى أن يجىء الليل ويتم حقن المريض بحقنة مورفين قوية تخمد آلامه وينام حتى الصباح . .

ورجع الشقيق إلى شقيقه يطمئنه بما عرف فوجده أكثر صراخًا وأنينًا ويتوسل إليه أن يفعل شيئًا يريحه من آلامه، فعاد إلى الطبيب يستغيث به ليأتى معه لفحص شقيقه خشية أن يكون قد حدث خطأ فى الجراحة فيكون هو السبب فى هذه الآلام غير المتحملة . . واستجاب الطبيب لرجائه وفحص المريض وأكَّد لشقيقه أن كل شىء على ما يرام . . وأنه لا مفر من احتمال الألم إلى أن يأتى الليل . . لكن المريض لم يهدأ لحظة وانسابت دموعه بغزارة مع عجزه عن الاحتمال فراود الشقيق الشك من جديد فى أن تكون هذه الآلام غير طبيعية . . وأن هناك بالتأكيد خطأ ما وقع فى الجراحة لكن الطبيب المقيم يتستر عليه حتى لا يثير انزعاجه . . أو مجاملة لأستاذه الجرَّاح الكبير .

وتحيَّر ماذا يفعل لكى يقطع الشك باليقين . . ثم هداه تفكيره إلى أن يذهب إلى غرفة الشاب الآخر الذى أجرى الجرَّاح له نفس

الجراحة ليرى حالته، فإذا كان يئن ويتوجع ويصرخ مثل شقيقه، فالطبيب صادق إذن والآلام طبيعية ولا خطأ فى جراحة شقيقه ولا ضرورة لأن يستدعى الجرَّاح الكبير من أى مكان ذهب إليه لإصلاح خطئه أو يخرج ليحضر جرَّاحًا آخر يعالج خطأ زميله وينقذ شقيقه من آلامه.

واقترب من غرفة صديقى، وكنت غير متواجد فيها تلك اللحظة، وطرق الباب بحذر فسمع صوت صديقى يأتيه واهنًا؛ تفضَّل! فأطل برأسه من وراء الباب فوجده مستلقيًا فى فراشه فى سكون ووقار.. بلا صراخ.. ولا ولولة.. ولا أنين.. فتأكدت ظنونه.. وهم بأن يرجع عن الدخول ويتوجه إلى الطبيب المقيم وهو فى قمة الانفعال ليفجِّر الأزمة، لكن أدبه حال بينه وبين أن يفعل ذلك قبل أن يجامل صديقى بالسؤال عن صحته.

فاقترب منه وسأله:

كيف حالك الآن يا أستاذ فلان؟

فأجابه صديقى فى هدوء: الحمد لله!

فقال له ـ كأنما ليتأكد من مخاوفه ـ هل أنت بخير؟

فأجابه صديقى فى وقار: نعم والحمد لله!

فعاد يسأله من باب المجاملة والتعاطف، خاصة قد وجده وحيدًا فى غرفته؛ هل تريد شيئًا قبل أن أنصرف؟

فأجابه صديقى بنفس الوقار والهدوء : نعم . . أريد أن أموت!

فإذا بنوبة هيستيرية من الضحك تنتاب الشاب . . لا يستطيع أن يتحكم فيها . . وإذا به لا يستطيع أن يمنع نفسه من أن يقول على الفور : يبقى خير!

ثم ربت على رأسه مشجعًا، وغادر الغرفة وهو فى قمة الابتهاج وقد زالت عنه كل المخاوف والظنون!

وفى الممر التقينا، وروى لى ما حدث وضحكنا معًا وسألنى : أين كنت فرويت له أننى كنت فى مكتب الطبيب المقيم للمرة العاشرة منذ الصباح أرجوه أن يأتى معى ليطمئن صديقى إلى أن كل شىء على ما يرام، بعد أن ظلَّ يتوجع ويصرخ طوال الوقت بلا توقف ويستغيث بى كل دقيقة لكى أفعل شيئًا؛ فأهرول إلى الطبيب ويأتى معى ويطمئنه بنفس الكلام فما أن يخرج حتى يصرخ صديقى من جديد ويتهمنى «بخيانة» صداقة العمر و«التواطؤ» مع إدارة المستشفى لتركه فريسة لهذه الآلام الوحشية وأنا حائر معه . . أرثى له ولا أملك له شيئًا.

فإذا كان قد وجده هادئًا حين زاره فليس معنى هذا أنه لا يتألم . . وإنما معناه أنه يتألم إلى حد العجز عن الصراخ والعويل . . أعانه الله على آلامه، وما هى إلا لحظات وسيواصل الأنين مرة أخرى بعد هذه «الاستراحة» القصيرة!

واستراح كلٌّ منَّا لهذا التفسير . . ورافقته لزيارة شقيقه وجاملته بالكلمات المألوفة وهدأت من روعه بأن حال صديقى كحاله . . وظللنا ساعات النهار ، ولعله كان أطول يوم فى شبابى نتبادل معًا أخبار المريضيْن إلى أن حلَّ الليل بعد طول انتظار ، وجاء الجرَّاح الكبير وحقن كلاًّ منهما بحقنة المورفين فسكنت آلامه لأول مرة منذ الصباح الباكر واستسلم للنوم الهادىء وانتهى أشقى يوم فى حياتهما ! وقال لنا الجرَّاح الكبير حين روينا له ما قاساه المريضان من آلام إنه لا يعطى المورفين لأحد أبدًا بعد الجراحة إلا لمن يجرى هذه الجراحة بالذات ، ولولا أنه هو نفسه قد أجريت له من قبل ، وخبر آلامها الوحشية ، لما قبل أن يعطى هذا المخدر لأحد ؛ لأن حقنتين اثنتين منه فقط تخلقان إدمانه !

وودعنا الجرَّاحَ الكبيرَ شاكرين وانصرفنا عند منتصف الليل مطمئنين على سلامة المريضين . . وفى الصباح الباكر عاد كل منَّا إلى مريضه فوجده لم يستيقظ بعد . . وحين استيقظ كانت آلامه فى حدود الاحتمال البشرى الطبيعى . . وبعد أيام تماثل المريضان للشفاء وغادرنا المستشفى وقد كسبت صداقة مريض الأقاليم وشقيقه ، وكسبت درسًا غاليًا لا يقل أهمية وهو ألا أحكم على أحد أبدًا من مظهره الخارجى بغير أن أقترب منه ، وأمتحن جوهره ومخبره وراء هذا المظهر . . وبعد ذلك يحق لى أن أحكم عليه ، وأدعى أننى قد عرفته .

ولقد استفدت كثيرًا من هذا الدرس، فيما تلا ذلك من مراحل عمرى، فلم أسمح لنفسى بأن أنخدع بابتهاج المبتهجين ولا بلهو اللاهين.. فأحكم عليهم بأنهم من السعداء لمجرد انبهارى بمظهرهم الخارجى البهيج وقبل أن أعرفهم عن قرب.. وأسبر أغوارهم، فكثيرًا ما تعاملت مع أشخاص يوحى مظهرهم الخارجى بأنهم لا يعانون من أية هموم كبرى فى حياتهم، فما إن اقتربت منهم وأعطيتهم سمعى وشجعتهم على الكلام حتى اكتشفت، بعد قليل، أنهم ممن تنطبق عليهم كلمة المفكر الفرنسى فولتير، إنهم لا يضحكون ابتهاجًا، وإنما تفاديًا للانتحار!

وكثيرًا - أيضًا - ما تعاملت مع أشخاص لا يئنون ولا يشتكون من حياتهم أو ظروفهم الخاصة.. ثم سرعان ما عرفت بعد اقترابى منهم أنهم حقًا لا يئنون ولكن ليس لأن حياتهم خالية مما يستحق الأنين وإنما لأنهم قد تجاوزوا مرحلة البوح والصراخ إلى مرحلة العجز عن الشكوى.. أو إلى مرحلة «الصمت.. قمة الانفعال» وهى مرحلة متقدمة من مراحل الألم يفقد الإنسان معها حتى القدرة على الكلام والشكوى.. والبكاء.

فإذا كنت تعلمت هذا الدرس، واستعنت به فى فهم شخصيات كثيرين يظنهم الغافل سعداء، وهم فى الحقيقة «مآس بشرية» تمشى على أقدامها، فالفضل فى ذلك لمن علمنى هذا الدرس بإجابته «العبقرية» على سؤال زائره الشاب فى ذلك الصباح البعيد.

مظبوط كتير !!

لماذا أتذكر هذه القصة الآن؟ هل لأن الدنيا كلّها مشغولة بكرة القدم وكأس العالم؟ أم لأن من طبيعتى اللائمة لنفسى باستمرار أن أتذكر أحيانًا بعض أخطاء مرحلة الشباب، فألوم نفسى عليها من جديد وأحاسبها عنها، كأنما قد جرت بالأمس وليس من عشرين، أو ثلاثين سنة؟ لابد أنهما السببان معًا. . فكأس العالم قد استدعى ذكرياتى «الكروية القديمة» . . وطبيعتى «النكدية» قد اختارت منها هذه الذكرى بالذات لتجلدنى بها، كأنما لا يكفى مرور أكثر من 25 عامًا عليها لأفوز بصك الغفران عنها !

فأنا أيضًا يا صديقى لى ماضٍ رياضى وكروى ليس كلاعب، فأنا لم أعرف من الرياضة سوى تنس الطاولة والسباحة فى مياه الشاطئ الضحلة، وإنما لى ماضٍ صحفى مع الرياضة وكرة القدم بالذات، ففى بداية الستينيات كنتُ أكتبُ سلسلة من التحقيقات الرياضية فى ملحق الأهرام الرياضى بعنوان «شخصية من الملاعب» . . كنتُ

أوقعها بتوقيع «رياضى» . . ولم أوقعها باسمى الصريح إلاَّ حين أوشكت على أن أتوقف عن كتابتها بعد أن اكتشفت متأخراً كالعادة، أنها قد حظيت باهتمام من القرَّاء يفوق كل ما حظيت به تحقيقاتى الأخرى التى كنت أعتبرها جادة وتليق بأن أوقعها باسمى! وحين أفكر فى هذه التحقيقات الرياضية الآن وأحاول فهم أسباب ما نالته من اهتمام بعض القرَّاء فإنى لا أجد سببًا لذلك، سوى أنى قد استخدمت فيها منهجًا كان جديدًا وقتها، هو محاولة التعمُّق فى فهم شخصية اللاعب الذى أكتب عنه . . ودراسة ظروف حياته ونشأته لفترة طويلة قد تستغرق شهراً كاملاً . . ثم محاولة تحليل شخصيته بعد ذلك باستخدام منهج التحليل النفسى الذى أولعت به منذ شبابى، بسبب قراءتى المبكرة لكتب عالم النفس النمساوى «سيجموند فرويد . . » .

وكانت قد ظهرت فى الصحافة المصرية فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات موضة أو تقليعة صحفية جديدة هى الاستعانة بعلماء النفس فى الحرب الإعلامية بين مصر وبين الدول العربية التى تختلف معها سياسيّا، فإذا اختلف عبد الناصر مع أحد الحكَّام العرب ذات يوم أسرع محررو الصحف، وخاصة من مدرسة أخبار اليوم، إلى بعض علماء النفس ووجهوا إليهم أسئلة مدروسة بعناية، بحيث تؤدى أجوبتها إلى نتائج محددة ومرغوبة، وفى

الصباح التالى تخرج الصحيفة على القرّاء وفى صدرها عنوان مثير من نوع : علماء النفس يؤكدون : الحاكم الفلانى يعانى من عقدة أوديب ! أو هلاوس خطيرة ! . . إلخ .

وكان هناك ثلاثة أو أربعة من أطباء النفس على استعداد دائمًا للمشاركة فى هذه اللعبة السياسية ، التى لا علاقة لها بالعلم ولا بالتحليل النفسى ، وكان هناك آخرون يحترمون علمهم وينأون بأنفسهم عن المشاركة فى هذا الدجل السياسى ؛ منهم : المرحوم الدكتور «مصطفى زيوار» يرحمه الله .

ولم أشارك والحمد لله فى هذا النوع من الحرب الإعلامية ، لكنها أوحت لى بفكرة استخدام منهج التحليل النفسى لأول مرة فى فهم شخصيات من أكتب عنهم من اللاعبين . . ونفرت من الاستعانة بالعلماء المستهلكين سياسيًا ، فبحثتُ فى دليل التليفون عن عالم نفسى لم تتعامل معه الصحف من قبل ، وعثرت على واحد منهم . . قرأت أمام اسمه أنه حاصل على شهادات من الجامعات الأمريكية .

واتصلت به ، ففوجئت بأن لغته العربية مكسرة وشبه عاجزة ، وفهمت منه بصعوبة أنه عائد حديثًا من أمريكا ، حيث عاش نحو 25 عامًا ، وأنه افتتح عيادته للتحليل النفسى منذ أيام فى مصر الجديدة . . ولم يدخلها مريض واحد بعد ! ولهذا فهو سعيد للغاية

باتصالى به ؛ لأننى أول صحفى يهتم به ويأمل أن يكون ذلك فاتحة خير بالنسبة له .

وشرحت له فكرتى من التحقيق الذى أعده عن أحد اللاعبين المشاهير وقتها . . كان معروفًا بمشاغباته مع الجميع وتناقضاته ، وعرضت عليه ملاحظاتى على الشخصية وتصرفاته وظروف نشأته وحياته . . وسألته عن رأيه فيها . . وكتمت ضحكى خلال المكالمة أكثر من مرة حين فوجئت بأنه «تحليلاته» لم تكن تتجاوز غالبًا عبارات بالعربية المكسرة من نوع دى . . دى . . هذه عقدة نفسى وحشة خالص !

أوه . . دى تعبان كتير !

وأدركت أننى لن أخرج منه بطائل إذا استمر الحديث معه على هذا المنوال ، فلجأت إلى «مساعدته» على الإجابة على أسئلتى بأن أوجه له أسئلة من نوع ؛ ألا ترى معى أن هذه التصرفات تكشف عن افتقاده للإحساس بالأمان فى حياته . . خاصة بالنسبة للمستقبل؟ فيجيبنى بحماسة ، وكأنما أمسك بطوق النجاة الذى ألقيته له : مظبوط كتير!

فأقول له : وألا ترى أيضًا أن ذلك قد يرجع إلى الحرمان الشديد الذى عانى منه فى طفولته وصباه ؛ بسبب ظروفه الاجتماعية القاسية؟ فيجيبنى بحماسة أكثر : مضبوط زيادة! «يقصد أيضًا»!

وهكذا رحت أضع فى فمه كل ما خرجت به من دراستى لظروف نشأة اللاعب . . وشخصيته وتصرفاته ، حتى إذا انتهيت من مهمة

التلقين هذه سألت الطبيب «اللقطة» عمَّا إذا كان يوافق على نشر «تحليله» هذا لشخصية اللاعب فى الأهرام، وقرأت ما كتبته عليه . . فإذا به يرحب بحماسة ويشكرنى بحرارة ويرسل لى صورة شخصية لنشرها مع «رأيه»!

ونشرت تحقيقى مستخدمًا منهج التحليل النفسى لأول مرة وقتها فى الحديث عن شخصية لاعب شهير وأثار التحقيق اهتمام بعض قرَّاء الرياضة وسعد به اللاعب نفسه، على عكس ما توقعت منه، واتصل بى يشكرنى على اهتمامى بأمره، ويقول لى إنه لم يفهم هو نفسه سر بعض تصرفاته الغريبة إلا بعد أن قرأ فى هذا التحقيق رأى عالم النفس الكبير، الذى استطاع أن يغوص فى أعماق نفسه ويفسِّر بعض ألغازها، واختتم حديثه راجيًا أن أعرفه به ليلجأ إليه كلما احتاج إلى مساعدته.

ووقعت فى مأزق . . إذ إننى لو عرفته به لما وجد عنده أكثر من بضع كلمات متقطعة مكسَّرة لا تشكل جملة واحدة مفيدة، ولم يكن هناك مفر من تجنب ذلك . . فتهربت من تعريفه به، وانشغل اللاعب بحياته . . فلم يعد للحديث عن هذا الأمر.

وسعدت بعد ذلك باكتشافى هذا العالم المريح . . وتوالت تحليلاته «النفسية» الصائبة لشخصيات نجوم ذلك الزمان من لاعبى الكرة، وتضاعفت سعادته هو بها، ومن حين إلى آخر يرسل لى صورة حديثة له لأنشرها فى تحقيقاتى بدلاً من صورته السابقة . .

حتى خيِّل إلىَّ أنه لم يعد له من عمل سوى الذهاب كل أسبوع إلى استوديو التصوير، والتقاط صور جديدة له يبدو فيها وهو يضع إصبعه على جبهته علامة للتفكير العميق !

ثم خطر لى بأن أكتب تحقيقًا صحفيّا عن لاعب كان صديقًا شخصيّا لى هو حسن الشاذلى، نجم نادى الترسانة والمنتخب لأكثر من 15 سنة، وكان حسن الشاذلى لاعبًا فذّا معروفًا بقوة تسديداته، حتى كنَّا نسمع صوت ارتطام قدمه بالكرة حين يسددها بقوة ونحن جلوس فى المدرجات!

وكان هداف ناديه، ولا يقل عدد أهدافه فى الموسم الواحد عن 20 أو 25 هدفًا بأى حال، أما على المستوى الشخصى فقد كان إنسانًا طيبًا مخلصًا لأصدقائه ولناديه، وحزينًا فى أعماقه رغم مرحه وخفة ظله، وكنت أفسِّر مسحة الحزن التى تلازمه بقسوة ظروف الحياة عليه فى طفولته. . وبخوفه الغامض الدائم من المستقبل؛ حيث لا وظيفة ولا شهادة جامعية ولا ضمان للمستقبل سوى الكرة الغادرة. . والتى لم تكن لتعطى نجومها الكثير فى تلك الأيام، وكان الشاذلى رغم شهرته الطاغية وقتها يعيش حياة بسيطة فى حى بولاق الشعبى ولا يملك سيارة ولا تزيد مدخراته عن بضع مئات من الجنيهات!

وفى قمة عطائه ونجوميته، انتابته فترة من عدم التوفيق فى الملعب طالت معه فتركت فى نفسه أسوأ الأثر. . وأدركت عمق محنته وهو

يحس بأن بساط النجومية ينسحب من تحت أقدامه بلا سبب مفهوم له . . فهو يواظب على التدريب بإخلاص . . ويحافظ على صحته . . وعمره لا يتجاوز الرابعة والعشرين ومستقيم فى حياته الخاصة . . فلماذا إذاً هذا الإخفاق؟ وانتابته نوبة اكتئاب عميق . . فاقترحت عليه أن يسافر معى إلى مدينتى الصغيرة دسوق ليبتعد قليلاً عن الشد العصبى فى جو الكرة وتوتر المدينة، وسافرنا معًا وأمضينا بعض الوقت فى بيت أسرتى هناك وأدينا الصلاة فى مسجد القطب الصوفى العارف بالله سيدى إبراهيم الدسوقى، وبكى الشاذلى بكاءً مرّاً أمام ضريحه، ودعا ربه أن يذهب عنه هذه الغُمَّة دعاءً مؤثراً دمعت له عينى حين قال وهو رافع رأسه لأعلى: ارحم ذليلك لاجل النبى! واحترمت دموعه وتركته ينفس عمَّا يضطرم داخله من انفعالات.

وعدنا للقاهرة وفكرت فى أن أكتب تحقيقى القادم عن محنته الشخصية مع الكرة، التى تعصاه والمخاوف التى تسيطر عليه ليترفق به جمهوره ويصبر عليه إلى أن يعبر هذه المرحلة بسلام، وأفرغت كل ما أعرفه عن حياته وشخصيته فى تحقيقى . . واستعنت كالعادة بعالم النفس «الملاكى» الذى أتعامل معه . . فاتصلت به، وأجريت معه حوارى ـ المعتاد ـ على طريقة: ألا ترى؟ ألا ترى؟ وهو يلاحقنى بإجابته الحكيمة التقليدية: مظبوط . . مظبوط كتير . . مضبوط زيادة . . إلى أن انتهيت من سردى لكل ملاحظاتى على ظروف

اللاعب، ثم قرأت عليه ما كتبت واستأذنته فى نشره ونشرت التحقيق على صفحة كاملة من الملحق الرياضى للأهرام بعنون :

. . . محنة الشاذلى !

وأحدث التحقيق صدى طيبًا فى الوسط الرياضى، وسعدت به أنا شخصيّا واعتبرته من أحسن تحقيقاتى الرياضية . . لكن سعادتى به لم تطل كثيرًا ، فبعد أسبوع من نشره تلقيت خطابًا من عالم النفس إياه يقول لى فيه أنه سعد جدًا بقراءة تحقيقى عن اللاعب «محنة الشاذلى»، ويحيى أمانتى الصحفية فى تسجيل رأيه العلمى الدقيق فيه ويرسل لى صورة حديثة لنشرها فى التحقيقات المقبلة!

وقرأت الخطاب، وبدلاً من أن أضحك للمفارقة اكتأبت!

اللاعب «محنة الشاذلى» . . يا إلهى إن الرجل أيضًا لا يحسن قراءة العربية ولا يعرف شيئًا عن الأسماء العربية . . وقد ظن أن كلمة «محنة» هى الاسم الأول للاعب . . وليست إشارة إلى أزمته . . وهو كذلك لا دراية له بظروف المجتمع المصرى ولا بعالم الرياضة فيه، فكيف اعتبر ما أقدمه من آراء على لسانه فى تحقيقاتى، تحليلاً علميّا أمينًا .

لقد خدعت نفسى تأثرًا بموضة حشر علماء النفس فى التحقيقات الصحفية، التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، وقدمت اجتهاداتى

الشخصية فى حدود قراءاتى فى علم النفس فى صيغة تحليلات دقيقة لعالم نفس متخرِّج فى الجامعة الأمريكية . ولا يمكن أن يكون هذا عملاً أمينًا مهما حاولت أن أبرره لنفسى بحسن القصد أو بسلامة النية أو بخدمة العمل الصحفى الذى أؤديه . .

وشعرت بالضيق من كل شىء فزهدت فجأة فى كتابة التحقيقات الرياضية ، وأنهيت سلسلة «شخصية الملاعب» التى قدمتها لنحو ثلاث سنوات فى منتصف الستينيات . . وتوقفت عن الاتصال بعالم النفس إياه ، فلم أسمع عنه شيئًا بعدها ، ولابد أنه عجز عن التفاهم مع مرضاه إن ـ وجدوا ـ وعاد للهجرة إلى أمريكا .

أما صديقى «محنة الشاذلى» فقد اجتاز محنته بسلام وعاد للتهديف وإطلاق قذائفه القوية فى شباك المرمى ، وتألق فى الملاعب أكثر من 10 سنوات بعد ذلك . . واعتزل الكرة ضد رغبة جمهور ناديه الذى كاد يهبط للدرجة الثانية فى موسم اعتزاله . . فقطع اعتزاله وعاد للملعب مع رفيق عمره : مصطفى رياض ، وأنقذا فريقهما من الهبوط فى المباريات الأخيرة من الموسم وسجل الشاذلى أجمل وآخر أهدافه ، ثم ودّع الملاعب راضيًا عن نفسه وعن حياته ، ولم يلبث أن عمل بالتدريب بعد ذلك ونجح فيه .

ونسيت أنا هذه الذكرى المخجلة طويلاً ، وغاصت فى أعماقى كأنها محيت من ذاكرتى محواً ، إلى أن فوجئت بها وأنا أشاهد

مباريات كأس العالم الأخيرة تطفو على السطح فجأة، وتجدد حنينى إلى فترة الشباب وذكرياته، وتجدد حسابى مع النفس عن بعض أخطاء شبابى وعثراته!

الوجـــوه الضـــاحكة !!

كنتُ عـائدًا إلى مصر عن طريق البحـر من إيطاليا منذ سنوات، وركبت الباخرة المصرية من ميناء فينسيا فى شمال إيطاليا، ووضعت حقـائبى فى الكابين، وخـرجت أستكشف مـعالم الباخـرة وأبحث عمَّا يسلينى خلال رحلتها الطويلة.

ركاب البواخر يتعارفون سريعًا، ويستجيبون أسرع لنداء المشاركة فى أى نشاط يشغل فراغ أيام السفر، دخلت صالون الدرجة الأولى وجلست إلى جوار ثلاثة شبَّان مصريين يتسلون بلعب «الكونكان»، ولفـتت مـتـابعـتى للعب نظر أحـدهم، فـقـال لى بود: هل تحب مـشـاركـتنا اللعب؟ رحـبت بالدعـوة التى كنت أنتظرها بلـهـفـة، وانضـممت إليهم على الفور وتعرفت عليهم وسعدت بصحبتهم، وبعد قليل دخل إلى الصالون شاب عربى أسمر طويل، وإلى جواره شاب أبيض البشرة أشقر الشعر، وطافا بأنحاء الصالـون، ثم اختارا أو اختـار الشـاب الأسـمر - عـلى الأصح - ركنًا منه وجلسـا فيـه.

لاحظت أن الشاب الأسمر بادى الضيق والملل، وأن الآخر مشرق الوجه دائم الابتسام، ويركّز كل انتباهه على الشاب الأسمر ويبدو متحفزاً فى كل لحظة للحديث إليه . . أو الاستجابة لإشارته، وخمنت بسهولة أنهما ليسا صديقين متساويين فى الحقوق والواجبات، وإنما تربطهما علاقة عمل يتبع فيها الشاب الأشقر الآخر.

وحين غادرا الصالون بعد فترة قصيرة ومرّا بجوارنا، تابعتهما بنظرى فقال لى أحد الشبّان الثلاثة مفسراً: إن الشاب الأسمر ثرى عربى واسع الثراء، وأن الشاب الأشقر ليس من أهل بلده، وإنما من بلد عربى آخر ويعمل سكرتيراً له.

وتعجبت لأن يركب الشاب الثرى الباخرة فى رحلتها التى تستغرق خمسة أيام طويلة . . وأمثاله لا يطيقون صبراً على هذه الرحلات البطيئة، ويتنقلون بالطائرات من مكان إلى مكان، وأبديت ملاحظتى هذه لرفاق السفر الثلاثة، ففسر لى أحدهم اختياره للسفر بالباخرة بأنه يصطحب معه فوق ظهرها خمس سيارات جديدة اشتراها من أوروبا ورافقها فى الباخرة، وأنه لن ينزل معنا فى الإسكندرية وإنما سيواصل الرحلة إلى بيروت، حيث يودعها بيته الصيفى بجبل لبنان، ثم يطير إلى بلده، وتعجبت من «غزارة» معلومات محدثى عنه، والرحلة البحرية مازالت فى يومها الأول، فضحك الشاب معتزّاً بمعلوماته، وأجابنى بأنه قد تعرَّف

على سكرتيره على مائدة الإفطار حين كان «السيد» مازال نائمًا فى كابينته الخاصة، وأنه لاحظ على الشاب الأشقر أنه مهذب وودود وباسم دائمًا، ويقبل على التعرف على الآخرين، على عكس مخدومه القليل الكلام والعازف عن الاختلاط بالركاب.

وعدنا إلى ما كنَّا فيه.. وفى قاعة الطعام جمعتنى مائدة الغداء مصادفةً بالسكرتير الشاب والشبَّان الثلاثة مرة أخرى، وتبادلنا التحية وأحاديث رفاق السفر، ولاحظت على الشاب الأشقر أنه رغم روحه الودودة، ليس مشرق الوجه بالابتسامة الدائمة كما لاحظت عليه خلال رؤيتى له مع الشاب الأسمر، وقدرت بينى وبين نفسى أنه يعتبر نفسه فى هذه اللحظة فى «إجازة» من الابتسام الإجبارى الذى تفرضه عليه مهام وظيفته خلال مصاحبته لمخدومه، وأنه يستريح قليلاً من التحفز المستمر لتلبية إشارات رب العمل الذى يتناول غداءه وحيدًا فى الكابين، وفى المساء رأيتهما معًا فى الصالون فرأيت الشاب الأشقر يستعيد ابتسامته وروح الابتهاج المستمر مرة أخرى، ويبدأ صاحبه دائمًا بالحديث ويروى له ملاحظات طريفة عن بعض الركاب، ويضحك عاليًا محاولاً إغراء الآخر بالضحك والابتهاج، فلا يستجيب له إلا بظل ابتسامة.. ثم يعود لصمته وضيقه بالرحلة المملة وركابها!

وأحسست فى داخلى ببعض الرثاء للشاب الأشقر، وضاعف من رثائى له أننى أحسست بأنه يحاول «بإخلاص» التسرية عن رفيقه، ويستجدى أية لمحة ابتهاج تصدر عنه ويسعد بها!

وتذكرت المأثور الشعبى الذى يقول: إن «أكل العيش مر»، وأنه جهاد متصل يتطلب أحيانًا أن يتنازل الإنسان عن بعض اعتباراته الشخصية إرضاء لمن بيده أمره.

وتساءلت بينى وبين نفسى.. إنه لا يكف عن الضحك والابتسام والابتهاج فى صحبة رفيقه.. فهل هو حقّا سعيد بصحبته كما يظهر للآخرين؟ أوَ ليس من المحتمل أن يكون أكثر منه ضيقًا بالرحلة البطيئة والفراغ، لكنه يدرك بفطنته أن الملل ترف ليس مسموحًا به إلا للسادة وحدهم؟

وتساءلت أيضًا كيف توصَّل إلى هذه الخبرة الثمينة فى معاملة مخدومه؟ هل هى فقط ضروريات الحياة التى قد تفرض على المرء أن يتفاهم أحيانًا مع النمل، كما قال ـ ساخرًا ـ نجيب الريحانى فى أحد أفلامه؟ أم ترى أنه قد صقل أيضًا خبرته وموهبته «بالثقافة» اللازمة «للتابع» الناجح، وعرف أنه لابد أن يكون مبهجًا دائمًا حتى لا يضيف إلى أسباب ضيق مخدومه سببًا جديدًا؟

لقد جاء فى مقدمة الرواية الرومانسية الحزينة «آلام فرتر» للشاعر الألمانى العظيم جوته، أن يوليوس قيصر لم يكن ليقبل فى بلاطه سوى أصحاب الوجوه الضاحكة المستبشرة؛ لأن الابتهاج عدوى كما أن الاكتئاب عدوى أيضًا. فهل قرأ هذا الشاب هذه المقدمة..

واستفاد بمعلوماتها الثمينة فى عمله؟ لم أستطع الجزم بشيء عن مستوى ثقافته، ورجّحت أنها - غالبًا - فطنة التابع المغلوب على أمره، الذى يعرف أن «المحتاج ليس له الحق فى الاختيار»، كما يقول المثل الإنجليزى، وبالتالى فهو مطالب دائمًا بمشاركة مخدومه كل اهتماماته بحماس «صادق» يشعر معه السيد أنه قد لبى له من حيث لا يدرى أمنية غالية لم يكن ليجرؤ على البوح بها!

وما أكثر الدسائس فى حاشية أمثال هذا السيد، وما أكثر الحاقدين الذين يتربصون للتابع، ويتسقّطون له الأخطاء لإبعاده والانقضاض على موقعه الأثير من مخدومه. لهذا فلابد لمن كان مثله أن يتسلح بكل فنون القتال للحفاظ على موقعه. وعلى قدر الغنائم يكون الطمع فى موقع الفائز بها. «والسيد» كريم مع تابعيه كما بدا لى ذلك واضحًا من ملابس السكرتير الفاخرة وساعته الثمينة وولاعته الذهبية وبقشيشه السخى لعمال الباخرة، ولو لم يكن للتابع من موقعه هذا أية غنيمة سوى مشاركته للسيد فى حياته المترفة، لكفاه ذلك دافعًا لأن يقاتل دفاعًا عن موقعه، فقد قال للشبان الثلاثة إنه يمضى شهور العام متنقلاً مع مخدومه بين بيته فى إسبانيا، وشقته الأخرى فى لندن وبيته الصيفى فى لبنان، والترف عدوى أيضًا يا صديقى واعتياده يضعف لدى البعض كل مقاومة ويدفعهم للتشبث به مهما كانت التنازلات.

دارت فى رأسى هذه الخواطر، فالتمست له بعض العذر فيما يُبديه من «مهارات» فى صحبة سيده، لكنى رغم ذلك وعلى كثرة ما لمست فى الحياة وقرأت فى الكتب عن فنون النفاق التى يمارسها أمثال هؤلاء التابعين، فإنى لم أشهد نموذجًا «عبقريّا» لفن النفاق، كما لمسته وشهدته عن قرب فى ذلك الصباح من رابع أيام الرحلة البحرية!

فلقد دخلت صالون الباخرة وجلست فى أحد أركانه أقرأ فى كتاب وأشرب القهوة، وبعد قليل جاء الشاب الأسمر الطويل ومعه تابعه وجلسا بالقرب منى، فلاحظت أن الشاب الأسمر الطويل قد بلغ به السأم من الفراغ ورتابة الحياة فى الباخرة قمّته، وتكرر المشهد التقليدى الذى رأيته طوال الأيام الماضية للشاب الأشقر، الذى يحاول التسرية عن السيد السأمان بنفس تفاصيله، ويبدو أنه قد أحس بأنه لم يوفق فى مهمته هذا الصباح على الوجه المرضى، فاقترح على السيد أن يلاعبه الكونكان متوعداً إياه أن «يثأر» منه لهزائمه الدائمة أمامه فى لعب الورق! ولم يتحمس السيد لاقتراح اللعب كثيراً، وقال له بتثاقل إنه لا جديد تحت الشمس وسوف يهزمه، ولهذا فلا داعى لتكرار اللعب لكن الآخر تشبث باقتراحه كأنما يتوقف عليه مستقبله، وقال السيد إنه يرجوه أن يعطيه فرصة أخرى للثأر منه لكرامته كلاعب!

ثم انتـابتـه نوبة طارئة من الحـمـاسـة، وقـال له إنه «يتـحـداه» أن يستطيع هزيمـتـه فى الورق مـرة أخـرى، وأنـه مسـتـعـد للرهان على ذلك!

ونجحت لـعبة التحدى فى تحريك اهتمـام «السيـد» بعض الشيء، فقال له «بإشفاق» ستخسر الرهان مرة أخرى. . فلا داعى للخسارة!

لكن الشاب لم يدع له فرصة للتراجع ونهض بحماسة لإحضار الورق. . وعاد وجلس إلى جوارى، متحفزًا للعب والانتصار، وأتاحت لى جلستى بجواره أن أرقبه عن قرب وهو يلعب بحماسة بالغة. . ويسحب الورق «بعصبية» شديدة، كأنما يتوقف على الكارت المسحوب مصيره كله، ويتصاعد توتره لحظة بعد لحظة إلى أن يفاجأ بالسيد يكشف ورقه فائزًا بالدور فينتفض من الانفعال وينفجر ساخطًا ولاعنًا حظه العجيب، ويلقى بورقه على المائدة بعنف، فيضحك السيد ساخرًا من انفعاله وتوتره!

وتكرر المشهد دورًا بعد دور لمدة ساعة، وفى كل مرة ينتفض الشاب الأشقر من الانفعال، وينفرج وجهه بالاحمرار ويلعن حظه ونحسه ويقطب مكتئبًا. . والآخر يضحك مبتهجًا! فاقتربت من التابع الأشقر أكثر، ودققت النظر فى ورقه دورًا كاملاً انتهى نفس النهاية. . ثم تسلمت بعده، ليس فقط بأنه قد قرأ مقدمة «آلام فرتر»، بل وكتاب «الأمير» لميكيافيللى أيضًا. وكل كتب فن الاحتفاظ بالمواقع الأثيرة من أصحاب القرار التى صدرت فى أنحاء الأرض!

فلقد نظرت فى ورقه، فوجدته فائزاً بالدور ولا يحتاج إلا أن يكشف ورقه ويعلن انتصاره، لكنه لا يفعل ذلك، وإنما يستمر فى سحب الورق بتوتر أشد.. «ويكسر» ورقة الفائز ورقة بعد ورقة إلى أن يجد السيد «الكارت» الذى يبحث عنه.. ويفوز بالدور مقهقهاً وينفجر التابع ساخطًا على حظه العاثر!

وتكرر المشهد ساعتين كاملتين، فلم «يخطئ» مرة ويستجيب لحافز الرغبة فى الفوز الذى يراود كل إنسان.. ولم يتخفف من توتره وعصبيته فى سحب الورق ولا من إحساسه الفاجع بالمفاجأة المؤلمة حين يكشف السيد ورقه كل مرة معلنًا انتصاره!

وتحوّل رثائى السابق له إلى «إعجاب» بقدراته المتعددة فى فن النفاق.. وبلغ إعجابى قمته ليس فقط بقدرته على ضبط أعصابه وعدم الاستجابة لنداء الفوز الطبيعى لدى كل إنسان وإنما أيضًا بقدرته الأكثر عبقرية على «الزعل» إلى حد تضرج وجهه بالاحمرار من الانفعال بعد «خسارته» لكل دور!

واستمتعت ساعتين كاملتين بهذا الدرس العجيب فى فن النفاق، وأنا أتعجب لحال الإنسان حين يتمكن منه «الغرض» وغريزة حب البقاء، ثم شبع السيد من الفوز والانتصار و«التريقة» على تابعه والشماتة فى خيبته، فأنهى اللعب ونهض مغادراً الصالون وهو يهوّن على تابعه هزيمته المنكرة، ويطالبه بأن يشرب كوبًا من الليمون

ليهدئ به أعصابه . . والآخر يتعثر فى «خجله وحرجه» من الهزيمة ، ويبتسم رغم ذلك مؤكدًا أنه الحظ وحده الذى هزمه !

وقبل أن يغيبا عن الصالون ، التقت عينى بعين التابع الذى لاحظ متابعتى لورقه باهتمام ، وحدس بالتأكيد معرفتى للعب ، وإدراكى لما كان يفعله بورقه ، فخيِّل إلىَّ أنه يقول لى بغير كلام : أكل العيش مر !

وخيِّل إلىَّ أننى أجبته صامتًا : نعم أكل «الجاتوه» مر فعلاً . . ولكن ليس إلى هذا الحد !

.. سـنة حـلوة يا «مذيـع» !

أما لماذا يا «مذيع» وليس يا «جميل» كما تقول الأغنية المعروفة . . فـلأنه هكذا جـادت بها قـريحـة أحدنـا فى تلك السنوات الجـمـيلة ، مـداعبًا أعضاء الشلة من المذيعين الشبـان «وقتـهـا» ، ونحن نحتفل بانقضـاء عام مضى بأحـداثه وأيَّامه وباستقبال عـام جديد ، وأمل جديد فى حياتنا معه . . فأصبحت الأغنية المحرَّفة تراثًا خاصّا للشلة تستخدمه فى أعياد الميلاد . . وفى احتفالات رأس السنة الميلادية وفى مناسبات زواج أعضائها ، واعتزالهم لحياة العزوبية والانطلاق فى الحياة بلا أعباء عائلية ، ولقد «تساقط» أفراد الشلة واحدًا بعد الآخر . . وشهدنا «استسلامهم» ودخولهم طائعين قفص الزوجية بعد طول مراوغة وعصيان . . وأقمنا لكل منهم «مباراة» اعتزال كمباريات اعتزال الخطيب وجمال عبد الحميد وفاروق جعفر ، وكان حفل الاعتـزال يسبق دائمًا حـفل الزفاف الرسمى . . ويتداعى له الأصدقاء من كل مكان ونجتمع فيه حول مائدة العشاء ونحن نتبادل

«التعازى» الساخرة فى «مواهب» صديقنا التى سيطمسها الزواج، والمسئولية العائلية والانشغال بلقمة العيش عن كل ما عداها، والصديق المعتزل يقسم لنا أنه لن يسمح لأية أعباء عائلية بأن تشغله عن موهبته وعن نجاحه فى الحياة العملية، ولا عن الشلة التى يدين لها برعاية مواهبه وتشجيعه على إبرازها، ونقول ـ نحن ـ هامسين: أفلح إن صدق . .

ثم نرجوه رجاءً حارًا ألاَّ يشمِّت فينا «الأعداء»، ويخذلنا أمامهم ويتحول إلى زوج تقليدى لا تشغله إلا شئون الحياة المادية فينصرف عن اجتماعاتنا وتنطفىء موهبته . . ويتوقف عن مواصلة طريقه، فيؤكد لنا أن شيئًا من ذلك لن يحدث . . فلا نكتفى بتأكيداته . . وإنما نجدد العهد معه على ألا يخذلنا بعد الزواج . . وهو جالس إلى جوار عروسه فى الكوشة بعد أيام . . فيعيد تأكيدها . . ويُشهد زوجته الشابة على صدق نيته فتضم صوتها إلى صوته بحماسةٍ!

فيصدق فى وعده بعد ذلك . . ويواصل حضور لقاءاتنا . . أو «ينهزم» بعد قليل . . وتنطمس «مواهبه» تحت ركام الأعباء العائلية .

فلقد كان من طقوس الشلة التى تضم عددًا من الأدباء الناشئين وقتها والصحفيين والشعراء والفنانين . . أن تجتمع حول مائدة العشاء مرة كل شهر على الأقل . . فيتبادل أعضاؤها التشجيع والإشادة بمواهب بعضهم البعض فى القصة والشعر والفن . . ويقرأ

علينا من يكتب القصة القصيرة أحدث قصصه فنسمعها باهتمام ونتقدها بإخلاص ونتلمس مواطن الجمال فيها، فنركز عليها حديثنا أكثر مما نركز على عيوبها الفنية . . لأن التشجيع يرعى الموهبة . . والتلهف لاصطياد الأخطاء يقتلها ويضعف معنويات صاحبها . . ويقرأ علينا من يكتب الشعر أشعاره . . ويُسمعنا من يؤلف الأغانى كلماته . . ومن يؤلف الألحان ألحانه . . وقد جمع بيننا الشباب والتطلع لمستقبل أفضل؛ يحقق كل منا فيه ذاته ونجاحه . . كما جمعتنا الصداقة المخلصة فخلقت لدى كل منا إحساسًا نادراً «بالإعجاب» بأصدقائه الآخرين وشخصياتهم ومواهبهم . .

والصداقة الحقيقية لابد أن تتضمن قدراً من الإعجاب المتبادل بين الصديقين . . كل منهما بشخصية الآخر وقدراته، فإذا خلت منه، فإنها لا تكون أبداً صداقة حقيقية أو عميقة، وأما الحب فهو متبادل بين الجميع . . وأما الصفاء فيعمر القلوب الشابة . . وأما «الفرحة» باللقاء فمشتركة بين الأصدقاء . . وأما «الحديث» فأحلى من الأنغام . . ومن الطعام الذى نجتمع حوله .

وقد كان من طقوس هذه اللقاءات أن تبدأ بعد العشاء باستعراض مواهب أفرادها واحداً وراء الآخر، ثم نخلص للحديث الممتع والمفيد بعد ذلك، ولأن المواهب كثيرة فلقد كنَّا نخصص لكل صاحب موهبة 15 أو 20 دقيقة، نسمع خلالها إنتاجه ونناقشه، ثم

ننتقل إلى غيره، لكن أحدنا كان يجور دائمًا على وقت الآخرين بما يلقيه علينا من أشعاره . . وقد كان أكبرنا سنًا . . ونتحرَّج من لفت نظره إلى عدم تجاوز الوقت المخصص له احترامًا لسنه ومشاعره، لكنَّه كان شاعرًا غزير الإنتاج إلى حد قد تتصور معه أنه لا عمل له إلا قرض الشعر مع أنه كان محاسبًا ناجحًا ورب أسرة وأبناء.

وقد كان من عادتنا أن نقاطع - صادقين - من يلقي علينا أشعاره بعبارات الاستحسان والتشجيع، فلاحظنا أنه يطرب لهذه العبارات طربًا شديدًا فيواصل إلقاء الشعر إلى مالا نهاية، مستزيدًا من إعجابنا وطربنا لشعره . . حتى لقد تنتهى القصيدة التى كتبها من قبل فيطوى ورقتها ويرتجل عدة أبيات إضافية فيها من وحى اللحظة . . ومن وحى صيحات الطرب والاستحسان التى كنا نخصه بأكبر قدر منها، ولست أذكر هل تداولنا فيما بيننا عن كيفية إيقاف صديقنا الذى تتملكه شهوة إلقاء الشعر عند حده، أم أن الفكرة قد نبتت تلقائيًا ومن وحى اللحظة فتحمس لها الجميع، وشاركوا فيها بلا تدبير . . وكل ما أذكره أننا قد بدأنا نزيد من حماسنا وطربنا بأشعاره عمدًا حتى يرتوى من الإعجاب ويجلس متيحًا لغيره فرصته.

وبعد أن كنَّا نتصايح طربًا بعد كل مقطع . . أصبحنا نقاطعه بالتهليل والاستحسان بعد كل خمسة أبيات أو أربعة، ثم بعد كل

بيتين، ثم بعد كل بيت. . حتى انتهى بنا الحال بعد عدة جلسات إلى أنه أصبح لا يكاد ينطق بشطرة واحدة من الشعر حتى ينفجر الجميع فى موجة من الاستحسان والتهليل والتصايح تستمر لبضع دقائق. . وهو يقف وسطنا ذاهلاً ومترددًا بين الرضا بإعجابنا وبين «الشك» فى نيتنا. . ومقاطعتنا المستمرة له. . وبعد جهد جهيد ينجح فى إسكات الأصدقاء، ويستأنف إلقاء الشعر فلا يدعونه يتم بيتًا أبدًا. . وإنما يمضى الوقت هكذا شطرة من الشعر تستغرق بضع ثوان. . وموجة عارمة من الصخب والطرب والاستحسان تستغرق بضع دقائق.

ثم تجرّأ الأصدقاء. . فأفرجوا عن ضحكاتهم المكتومة. . وتلاقت عيونهم وهم يتصايحون طربًا فازدادوا ضحكًا وصخبًا وشيطنة. . والصديق الشاعر يشاركهم ضحكهم بلا غضاضة، وينتظر أن يهدأوا ليواصل إلقاء شعره دون جدوى، إلى أن ييأس نهائيًا فيجلس باسمًا وهو يرمق الأصدقاء بنظرة فاهمة كأنّما يقول لهم: نجحت حيلتكم هذه المرة. . لكنها لن تنجح معى. . إلى الأبد!

ولقد أشفقت على هذا الصديق من أن يتأذى بهذه «المقاومة الخبيثة» لشعره. . ورجوت قائد فرقة الضجيج، وكان مذيعًا شابًا

بالإذاعة أن يخفف من شيطنته مع هذا الصديق حرصًا على مشاعره وحتى لا نفقده كصديق طيب ومجامل . . فإذا به يؤكد لى أنه يستمتع بهذه «المقاومة» مثلما نستمتع بها نحن تمامًا ، لأن قلبه طيب ويحب الجميع ومادام ذلك يمتعهم فهو لا يعترض عليه .

ولم أقتنع تمامًا بهذا التفسير . . واتفقنا كحل وسط على أن نسمح لصديقنا الشاعر ـ كل مرة ـ بأن يلقى علينا 25 أو 30 بيتًا من الشعر بلا مقاومة . . وبعد ذلك فليفعل كل منًّا ما يشاء مع الحرص دائمًا على عدم جرح مشاعر صديقنا الطيب أو إغضابه ، واسترحت لهذا الحل الوسط ، لكنى لم أكن لأتصور أنه سيطلق عقال مشاغبات المذيع الشاب لصديقنا الشاعر إلى هذا الحد الخطير . . فقد التزم المذيع بالاتفاق ـ فعلاً ـ حتى 30 بيتًا من الشعر ، ثم أعفى نفسه من أى قيد بعدها . . فتمادى فى الشيطنة معه حتى صرخ بانفعال ذات مرة فى وجه صديقنا : الله . . يا أستاذ ! . . ولم يكن الشاعر قد نطق بعد بكلمة واحدة من البيت الجديد ، وإنما همَّ فقط بفتح فمه ، فلاحقه بهذا الهتاف . . وانفجرت عاصفة من الضحك الصاخب شارك فيها بلا غضاضة أيضًا الشاعر نفسه .

ويبدو أن الشاعر قد أضمر فى نفسه ذات ليلة ألاَّ يسمح لأى مقاومة بأن تعترض إسماعنا لقصيدة طويلة جدًا ، فمضت ساعة

وهو يتعثر فى الإلقاء بين موجات الصخب والضجيج والاستحسان المتتالية بغير أن ييأس . . وإنما يصمت حتى يهد التعب الجميع ويعود لمواصلة الإلقاء، فإذا بالمذيع الشاب ينتفض من مجلسه فجأة كأنما قد أصابه مس من الجنون، ويندفع فى اتجاه الشاعر يريد أن يفتك به من شدة «الإعجاب» وهو يصيح فى وجهه بانفعال شديد: ما هذا الإعجاز . . ما هذه العبقرية . . ما هذا السحر . . هل تريد أن تجنِّنا . . نعم أنت تريد أن تجنِّنا . . فيقفز إليه بعض الأصدقاء ويحولوا بينه وبين الشاعر بصعوبة ويعيدوه إلى مقعده بعد مقاومة شديدة وهو يردد اتهامه للشاعر بأنه يريد أن يفقدنا عقولنا بهذا الشعر البديع . . . وأنه غير مسئول عن تصرفاته إذا أذهب هذا الشعر عقله، فارتكب جريمة لا يقصدها؛ لأنه ليس متمالكًا لقواه العقلية!

وكانت ليلة ليلاء تمزقت فيها الأجناب من الضحك المكتوم ومزقتنا الحيرة بين هذا المذيع . . وهذا الشاعر الذى لا يريد التوقف عن إلقاء شعره، ولم يتوقف ليلتها بالفعل إلاَّ بعد أن قفز إليه المذيع الخبيث والشرر يتطاير من عينيه مرتين أو ثلاثة . . حتى شكا لى صديق من الشلة من أن عضلاته قد تخدرت بسبب ما بذله من مجهود للحيلولة بين المذيع «المعجب» . . والشاعر «المجيد» ورجانى التدخل قبل أن يفلت الزمام نهائيًا من يده، فهمست فى

أذن الشاعر محرجًا راجيًا الاكتفاء بهذا القدر حرصًا على سلامة القوى العقلية لأحد أفراد الشلة . . فاستجاب مشكورًا وواعدًا بأن يوزع على الأعضاء نسخًا من قصيدته البديعة .

وغادرنا المجلس ليلتها ، وأنا أتصور أننا قد فقدنا صداقة هذا الشاعر للأبد ، فإذا به يتصل بى بعدها بأيام ويدعو الشلة كلها للعشاء فى بيته فى نهاية الأسبوع !

ومن عجب أنه كان شاعرًا مجيدًا ، بالفعل ، وكنَّا نستحسن حقّا شعره ونطرب له ونتوقع له أن ينال مكانته الأدبية اللائقة به . . لكن سامح الله شهوة الإطالة التى كانت تتملكه ، وشهوة المشاغبة التى كانت تتملك بعضنا !

وفى مثل هذه الجلسات ، كانت الشلة تلتقى فى مواعيدها الشهرية الدورية وفى اجتماعات أخرى كنا نسميها «دورات استثنائية» كمناسبة عيد ميلاد أحدنا . . أو زواجه . . أو الأعياد . . أو رأس السنة الميلادية ، حيث كان صديقنا الشاعر يصر كل سنة على دعوتنا للعشاء فى بيته ويعلن لنا بافتخار قبل العشاء : إنه قد كتب قصيدة جديدة بعنوان لا يتغير كل سنة وهو «فى استقبال العام الجديد» ، وسيلقيها علينا بعد العشاء حين ننتقل إلى الصالون . . فيتعمد الأصدقاء الملاعين أن يطيلوا جلستهم إلى مائدة الطعام لأكبر وقت ممكن بدعوى أن الطبيب قد نصح كلاً منهم على حدة بأن يتناول عشاءه ببطء شديد وأن يمضغ طعامه جيدًا . . وألا يتعجل

النهوض من المائدة قبل ساعة على الأقل! والشاعر واقف يتحرّق شوقًا لأن يمارس فينا هوايته .

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنونُ وأهْلُهَا

فكأنَّها وكأنَّهم أحْلامُ

كما قال الشاعر . . لكنها ولكنهم لم يكونوا أحلامًا، بل كانت أجمل أيام العمر، وكانوا أخلص الأصدقاء رغم شيطنتهم فلقد كانوا يتبادلون الحب والوفاء والإعجاب بإخلاص . . ويسعدون بكل خطوة يحققها أحدنا فى حياته العملية . . ومن هذه الشلة خرج كتَّاب وأدباء وشعراء وفنانون حققوا نجاحًا طيبًا فى حياتهم، ومازال قلبى يخفق بالحنين إليهم وإلى أيامهم السعيدة، كلما قرأت اسم أحدهم على غلاف كتاب أو فى إحدى الصحف . . أو كلَّما سمعته فى الإذاعة وقد تفرقت بنا الدنيا وانشغل كل منا بحياته الخاصة وطريقه العملى فى الحياة . .

ثم حدث أن أمضيت ليلة رأس السنة الميلادية فى مثل هذا اليوم من العام الماضى فى البيت الحرام . . أطوف بالكعبة المشرفة داعيًا لنفسى وأسرتى وأحبائى بالخير . . وأجلس فى رحابها صامتًا أترقب انقضاء عام مضى من العمر . . وميلاد عام جديد . . وكلَّما تذكرت صديقًا أو زميلاً أو قريبًا دعوت له بالخير وقرأت له الفاتحة . . فإذا بوجوه أفراد هذه الشلة القديمة تقفز إلى مخيلتى واحداً بعد الآخر

وبعضهم لم أره منذ عشر سنوات فتفيض نفسى فجأة شوقًا إليهم وأدعو الله لهم جميعًا بالخير والسعادة والنجاح فى حياتهم وأسترجع مسيرتهم فى الحياة فى ذهنى فأجدهم جميعًا قد حققوا لأنفسهم كل ما رجوه ورجوناه لهم من نجاح . .

وأقدِّر أنهم الآن فى سن «شباب الشيخوخة» التى يقول عنها أديب فرنسا العظيم «فيكتور هوجو» إنها تبدأ مع الخمسين ؛ لأن الأربعين عنده هى كهولة الشباب والخمسين شباب الشيخوخة .

وأتذكرهم جميعًا حين كانوا وكنَّا معهم فى سن «شباب الرجولة» وأسأل نفسى عن سر نجاحهم فى الحياة فأجدنى أضع أصبعى على أكثر من سمة مشتركة كانت تجمع بينهم . . ولعلَّها المسئولة عمَّا حققوا وأولها صفة الحماسة التى قال عنها أحد أصحاب الملايين الأمريكيين : أن الإنسان يستطيع أن يغيِّر مجرى حياته كله إذا تحلَّى بصفة واحدة هى الحماسة للحياة وللعمل ولكل شىء .

وقد كانوا جميعًا متحمسين لأعمالهم ومواهبهم ، ويؤمنون أن العمل الشاق هو الطريق الوحيد للنجاح . . وثانيها : روح التفاؤل والثقة فى الله والتعلُّق الدائم بالأمل فى غد أفضل التى كانت تسودهم جميعًا . . وثالثها : أن أهداف كل منهم فى الحياة كانت واضحة أمامه ، فسعوا إليها من الطرق المؤدية لها . . لأن تحديد الأهداف التى يسعى إليها الإنسان فى كل مراحل العمر . . هى الخطوة الأولى للسعى إليها وتحقيقها . .

كما كانوا جميعًا وبغير اتفاق ينفذون فيما أتصور نصائح خبراء العلاقات الإنسانية للباحثين عن السعادة والنجاح فى حياتهم . . فلا يعاشرون إلاَّ الأحباب والأصفياء الذين يحبون الآخرين ولا يبددون طاقتهم الإنسانية فى الكراهية والضَّغينة ويبتعدون عن الثقلاء وكارهى البشر وذوى النفوس الخربة التى تبدد طاقتها فى الحقد على الآخرين وكراهيتهم، ثم يتعجبون من أنهم لم يحققوا نجاحًا فى الحياة وقد بددوا أغلى قدراتهم فى الهدم والكراهية والبغضاء، كما كانوا جميعًا ممَّن يعرفون أهمية القيم الإنسانية فى الحياة ويدركون بنظرة سليمة أن المال قد يشترى كل شىء فى الحياة، إلا السعادة، فلم ينشغلوا به عمَّا فى الحياة والعلاقات الإنسانية من جمال وأهداف أخرى جديرة بالاهتمام.

وسنة حلوة «يا مذيع» لك ولكل أحبائك . . ولكل البشر أجمعين . . آمين يا رب العالمين . .

عـادة مزعجـــة !!

من عاداتى أو قل من «آفاتى» الثقافية أننى كلما قرأت كتابًا أو قصة من قصص الحياة التى تثير التأمل، توقفت أمامها طويلاً . . وفكرت فيها . . ووجدت نفسى غالبًا أمسك بقلمى لأكتب عليها تعليقا قصيراً يلخص مغزاها أو عبارة مأثورة استدعتها هذه القصة من مخزن الذاكرة، ورأيت فيها تعبيراً صادقًا عنها تمامًا كما لو كنت أؤدى فى هذه القصة امتحانًا مدرسيّا، أجيب فيه عن السؤال التقليدى القديم: اقرأ القصة التالية . . واكتب ما فهمته منها؟

ومع أن هذه العادة تفسد علىَّ - أحيانًا - متعة القراءة، إلاَّ أننى استفدت منها كثيراً، وكثيراً ما رجعت إلى بعض كتبى وأوراقى القديمة ففوجئت بهذه التعليقات أو الكلمات عليها وأعدت قراءتها متعجبًا وحاولت تذكُّر انطباعاتى عنها وقتها .

وفى الأسبوع الماضى عدت لقراءة بعض هذه القصص وفوجئت كالعادة بتعليقاتى عليها فابتسمت . . وتأملت . . وفكرت فى أن أشركك معى فيها :

هو فتى صغير فى السادسة عشرة من عمره وهى فتاة فى الرابعة عشرة جمعت بينهما مشاعر المراهقة فتصور كل منهما أنه لا حياة له بعيداً عن الآخر وفراًّ من أسرتيهما لكى يتزوجا! واكتشفت الأسرتان القصة الغريبة فأعادتا البطلين إلى رشدهما.

وجرفت الحياة بعد قليل هذه «القصة» وانشغل الفتى بحياته ودراسته وانشغلت هى بحياتها، ثم بلغت سن الزواج الطبيعية فتزوجت رجلاً آخر غير فتاها القديم وتزوج هو من فتاة مناسبة له، ومضت الحياة فى طريقها فأنجبت عدة بنات وأنجب ثلاثة أبناء، وكبر الأولاد وتزوجوا واستقلوا بحياتهم عن الأبوين، ثم ترملت فتاة القلب القديمة وعاشت وحيدة لسنوات طويلة، وعاش فتى القلب حياته العائلية مع زوجته بلا مشاكل تذكر سوى بطاقة بريد مجهولة تأتيه فى بداية كل عام تحمل له تمنيات سيدة لا توقع بطاقتها سوى بعبارة «صديقة قديمة» وتتمنى له حياة سعيدة وأثارت البطاقة «غيرة» زوجته، لكن تكرارها لسنوات طويلة أفقدها أثرها فلم تعد تثير.. ولا الغيرة.

ورحلت زوجته عن الحياة أخيراً ووجد الفتى القديم نفسه شيخًا وحيداً فى الواحدة والثمانين من العمر، وذات صباح رفع سماعة التليفون فسمع صوت سيدة تقدم له عزاءها فى وفاة زوجته، ثم تسأله فى حياء هل مازلت تذكرنى؟

واكتشف مذهولاً أن هذه السيدة هى نفسها الفتاة الصغيرة التى فر معها ذات يوم منذ أكثر من 65 سنة ليتزوجها، والتى لم يرها مرة واحدة منذ تلك الأيام البعيدة.

ودعته الصديقة القديمة لتناول القهوة فى بيتها.. وذهب إليها يحمل باقة من الورد.. والتقى الحبيبان القديمان وكل منهما عند شاطئ الثمانين، واعترفت له بأنها صاحبة البطاقة المجهولة التى ظل يتلقاها لأكثر من 45 سنة! وبعد عدة لقاءات أخرى اكتشف الصديقان أنهما مازالا قادرين على أن يذهلا من حولهما بجرأتهما كما كانا يفعلان قديمًا فى سن الصبا، فلقد قررا أن يتزوجا ويحققا الحلم القديم ويمضيا ما بقى لهما من العمر فى بيت واحد.. وتعجَّب الأبناء والأحفاد لكنهم لم يترددوا فى تأييد الزواج وحضور مراسمه التى جرت فى إحدى كنائس ولاية فلوريدا منذ عام.

وقد قرأت هذه القصة وقتها فى إحدى الصحف الأمريكية وأنا فى الطائرة فى طريق عودتى لمصر فقصصتها واحتفظت بها فى أوراقى منذ ذلك اليوم، ثم عثرت عليها منذ أيام فوجدتنى قد كتبت على هامشها كلمة الأديب الروسى العظيم تولستوى: «يخطئ من يظن أن غاية الحياة هى خدمة الله فقط، فإن من غاية الحياة أيضًا الحصول على السعادة التى أرادها لنا الله بطرق مشروعة فمن يطلبها بوسائلها الشريفة فإنما يحقق أيضًا إرادة الله».

. . . .

وُلدَ طفلاً عـاديّا ككل الأطفـال . . لكـن ذكـاءه لفت الأنظار إليـه حين التحق بالمدرسة فتوقع له الجميع مستقبلاً باهرًا ، وعندما أدَّى امتحانه الشفوى الأخير بالجامعة منحه أساتذته الدرجة النهائية فى الامتحان فعلق على ذلك أستاذ آخر بأن أساتذته كانوا أذكياء إلى الحد الذى سمح لهم بأن يعرفوا أنهم إنما يتحدثون إلى شخص أذكى منهم!

وبدأ الشاب الواعد بالنبوغ دراسته للماجستير . . لكنه ينحنى ذات صباح على حذائه ليربطه . . فيعانى صعوبة شديدة فى الإمساك بالرباط ويكتشف أن أصابع يديه تتحركان بصعوبة . . وأنه يتكلم بعناء شديد ويطوف على الأطباء الذين يحارون طويلاً فى مرضه قبل أن يكتشفوا أنه قد أصيب بمرض نادر يؤدى إلى ضمور العضلات الحركية ، وأن حالته ستتدهور سريعًا وسيفقد القدرة على تحريك أى عضلة فى جسمه ، ثم تنتهى صفحة حياته خلال عامين على الأكثر .

ويعرف الشاب كل ذلك فيستسلم للإحباط والتبلُّد ويتوقف عن العمل فى رسالته ، ويمضى وقته فوق كرسى متحرك فى سماع الموسيقى ويترقب الموت ، لكن الأيام تمضى بغير أن تحمل له جديداً . . ويعيد التفكير فى الأمر بهدوء فيرى أن عمله كله فى

مجال عقلى، وأن ذاكرته مازالت خارقة كما كانت وأنه مازال قادراً على أن يجرى فى عقله أعقد المعادلات الرياضية ويمليها على الآخرين فتستغرق الصفحات، ويقرر ببساطة ألا يموت، وأنه ليس فى حاجة إلى عضلاته وإنما إلى عقله فقط، وينهض مدفوعًا بروح جديدة لاستكمال رسالته.

ويلتقى بطالبة تدرس اللغات فيتبادلان الحب والإعجاب ويقرران الزواج. . وتقترن به الفتاة الجميلة «جين» وهى تدرك تمامًا حالته الصحية، ولا تندم بعد ذلك أبدًا على قرارهما، وإنما تساعده فى طبع رسالته للدكتوراه وتنجب له 3 أبناء وتدير حياته وحياة الأسرة بكفاءة وإخلاص، ويعمل الشاب القعيد أستاذًا بجامعة كمبردج. . وتتوالى إنجازاته الفذة فى الفيزياء وتتوالى أفكاره العلمية الجديدة.

فيقول عنه أحد زملائه أنه لا يفعل شيئًا سوى أن يخرج علينا دائمًا بأفكار علمية مبتكرة فنعمل نحن على التأكد منها ونواصل بحثها.

ويحقق الشاب الضئيل شهرة عالمية ترشحه للفوز بجائزة أينشتاين فى الفيزياء النظرية وينضم للجمعية الملكية البريطانية فيحمله زملاؤه فوق مقعده وعمره 32 سنة ووزنه 50 كيلو جرامًا فقط ليحضر مراسم الانضمام للجمعية وتمنحه ملكة بريطانيا لقب «سير» وتصفه الصحف العالمية بأنه أشهر علماء هذا الزمان بعد ألبرت أينشتاين،

ومازال كذلك على الرغم من ظروفه الصحية المؤلمة وتدهور قدرته على الكلام حتى أصبح حديثه همسًا خفيفًا كالفحيح .

وبعد 27 عامًا من زواجه بطالبة اللغات ، قال عالم الفيزياء الشهير : «لقد كانت جين زوجتى هى التى أعطتنى الإرادة لأن أحيا» .

أما الأطباء فإنهم يقولون إن مجرد بقائه على قيد الحياة معجزة لا تفسير لها سوى أنه رجل صلب عنيد، وكل يوم يعيشه يسجل به رقمًا قياسيًا فى عالم الطب!

ولقد قرأت قصة عالم الفيزياء العبقرى ستيفن هوكنج منذ فترة . . ثم عدت إليها منذ أيام فوجدتنى قد كتبت عليها كلمة الحكيم الفرعونى «آى» فى رواية «العائش فى الحقيقة» لنجيب محفوظ :

«روح الإنسان أقوى آلاف المرات من عضلاته المدربَّة المشدودة» وكتبت أيضًا عبارة الأميرة الفرعونية أمينيرس فى أوبرا عايدة الشهيرة :

«الزمن كفيل بمداواة الجرح . . والحب أقدر على ذلك منه ! »

. . . .

قرر أن يكون كاتبًا قصصيّا شهيراً، فاستقال من وظيفته فى الصحيفة المحلية وتفرغ بلا أى مورد رزق لكتابة القصص من الصباح حتى آخر الليل وإرسالها بالبريد للمجلات عسى أن تنشرها وتبعث له ببعض النقود!

ومضت الشهور دون أن ينجح فى نشر قصة واحدة، ووافقت إحدى المجلات على أن يكتب لها عرضًا للكتب الجديدة دون أجر سوى الاحتفاظ بالكتب الجديدة التى سترسلها له، فراح يكتب عرض الكتب ويرسله لها، وكلما تجمع له عدد من الكتب باعه بربع ثمنها لكى يشترى بثمنه الخبز وطوابع البريد وورق الآلة الكاتبة. . أما الطعام فمن البطاطس التى يزرعها فى حديقة البيت المتهدم.

وامتلأت حقيبتان كبيرتان بالقصص القصيرة التى كتبها وأرسلها بالبريد إلى المجلات المختلفة وأعادتها له معتذرة عن عدم نشرها، وأخيراً، وبعد 6 سنوات من الكتابة اليومية من الصباح حتى بعد منتصف الليل، نشرت له إحدى المجلات قصة وأرسلت إليه عشرة دولارات فكانت هدية السماء إليه، فواصل الكتابة وكتب أولى رواياته ونشرها، واختيرت إحدى قصصه القصيرة للفوز بجائزة أدبية ومبلغ ألف دولار فكاد يغمى عليه حين تلقى الخبر ليس فقط لقيمة المبلغ الكبيرة بالنسبة إليه، وإنما أيضًا لأن هذه القصة بالذات قد رفضتها 12 مجلة أرسلها إليها بالبريد.

وبعد أن احتفل بالفوز الكبير تناول أول وجبة من اللحم المشوى له ولأسرته منذ أكثر من سنة، ثم عاد إلى الكتابة بلا توقف، وزراعة البطاطس، وقطع الأخشاب للمدفأة الوحيدة، وظل برنامجه اليومى - حتى بعد أن اشتهر وأصبحت إحدى رواياته التى تحولت إلى مسرحية تدر عليه 10 آلاف دولار كل أسبوع - هو أن ينهض صباحًا فيتناول إفطاره، ثم يبدأ الكتابة إلى ما بعد منتصف الليل وأحيانًا إلى الثالثة صباحًا، ورغم هذا العناء المستمر فقد استرد وزنه الذى فقد منه 80 رطلاً فى سنوات الحرمان . .

واسترد قيمته الأدبية التى شككه فيها رفض المجلات المتواصل لأعماله وأصبحت روايات الكاتب الأمريكى «أرسكين كالدويل» وقصصه مادة غنية للسينما الأمريكية . . والمسرح والمجلات الأدبية فى كل مكان وبكثير من اللغات، ومنذ أيام قليلة عدت لقراءة مذكراته عن أيام الحرمان التى استمتعت بقراءتها أكثر من مرة . . فوجدتنى قد كتبت عليها كلمة للسياسى الفرنسى الداهية ريشيليو تقول : إن الفرص السانحة تمر بنا كثيراً، لكننا لا نتعرف عليها ؛ لأنها تأتينا دائمًا متنكرة فى ثوب العمل الشاق . . فلا نكتشفها .

فما رأيك فيما قرأت . . وفيما كتبت . . وبماذا تنصحنى لكى أتخلص من هذه العادة «المزعجة»؟ !

نــار مــن الســـماء !!

هل تذكـر العنوان الطريف الذى اتخـذه الأديب الكبيـر المرحـوم يحيى حقى عنوانًا لمذكراته؟

لقد اختـار لهـا تلك العـبـارة الدارجة على ألسنة البـسطاء حـين يسألهـم أحـد عن استـعـداداتهم لمواجـهـة أمر معيَّن، فـيـجيبـونه بما اتخذوه له من عدة واستعداد، ثم يعقبون على ذلك بقـولهم له: فى النهـاية . . خليـهـا على الله! كـأنما يطمـئنونه بعـد سـرد الخطوات والاسـتـعـدادات إلى أن كل شىء سيـمـضى على مـا يرام بتـوفيق الله أولاً وأخيراً ورعايته.

وهذا فى تقـديرى هو خـلاصـة الحكمـة؛ مـخـتـزلة فى كـلمـات بسيطة . . عميقة المغزى.

إنهـا لا تعنى أبدًا التواكليـة . . أو التخلُّص من واجب الإنسـان فى بذل الجـهـد الكافى لتـحـقيق أهدافه أو اتخـاذ الاحـتيـاطات اللازمة لتجنُّب المشاكل المتوقعة، وإنما تعنى فقط التسليم بأنه بعد بذل الجهد

واتخاذ الأسباب هناك دائمًا إرادة إلهية علينا إن لم نكلل جهودنا بتوفيقها ورعايتها . . فلن تحقق هذه الجهود ما أردناه منها . . ولن تتحقق الأهداف التى حلمنا بها حتى لو خضنا إليها بحار المجهول .

وهى فى رأيى أفضل روشتة لمقاومة الإحباط وترسب المرارة فى نفوسنا إذا اعترضت طريقنا العقبات . . أو مالت عنا أمواج الحياة فحملت إلى غيرنا ما طلبناه نحن لنا .

فالذى لا يقدِّر لنفسه الخسارة . . قبل الفوز ، تضعفه الخسارة إذا حلَّت به وتشل روحه وتصبغ حياته بالمرارة والسواد وتفقده القدرة على الاستمتاع بما أتاحته له الدنيا من جوانب النجاح والتوفيق الأخرى . . كما أنها وهو الأهم تفقده القدرة على مواصلة الكفاح لخوض جولة وربما جولات جديدة لتحقيق أهدافه وطموحاته .

أما من يؤمن دائمًا بأن الحياة خسارة وفوز ، ويتعلم كيف يتقبل الهزيمة فى بعض مراحل سباق الحياة . . فإنه لا يفقد أبدًا قدرته على مواصلة الكفاح لتحقيق أهدافه ، بل قد يستفيد من هزائمه الشخصية أكثر مما يستفيد من انتصاراته ويواجه الحياة بقلب يخفق دائمًا بالأمل فى الغد ولا يتحسر أبدًا على شىء فإنه ، مادام لم يقصِّر فى بذل ما فى طاقته من جهد للوصول إليه . . مؤمنًا دائمًا بأن هناك فى النهاية إرادة عليا قد ترى لنا غير ما أردناه لأنفسنا ، وعلينا أن نتقبل ما رأته لنا ، بلا تحسر على مالم ننله ، ودون حسد لمن اختصتهم الحياة دوننا بما أردناه لأنفسنا .

فمنذ قديم الزمان والإنسان معذب دائمًا برغباته وتطلعاته، ولا يتصور لنفسه سعادة إلا إذا حقق لنفسه كل ما رغب فيه وتمناه . . وبسبب عذاب التطلُّع إلى الأشياء البعيدة هبط الإنسان من الجنة إلى الأرض ثمنًا لخطيئة آدم فى التطلُّع إلى الثمرة المحرَّمة .

وفى الأرض وقعت أول جريمة قتل عرفتها البشرية بسبب تطلُّع أحد ابنىْ آدم وهو قابيل إلى المرأة المحرَّمة عليه وهى أخته قليما، فحين هبط آدم إلى الأرض مع حواء، كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى، وأمره ربه بأن يزوِّجَ كل ولَد من ولديْه أختَ الآخر، إذ لم تكن تحل أخت لأخيها الذى ولدتْ معه فى بطن واحدة، فأراد هابيل أن يتزوج أخت قابيل، لكنَّ قابيل تطلَّع إليها وهى محرَّمة عليه وأراد أن يستأثر بها لنفسه . . فأمرهما آدم بأن يقرِّبا قربانًا إلى الله ليحكم بينهما . . فقرب هابيل جذعة سمينة «أى نعجة» وقرَّب قابيل حزمة من زرع ردئ، فنزلت نار من السماء والتهمت الجذعة .

وبدلاً من أن يتقبَّل قابيل حكم القدر بنفس راضية تمرد عليه، وغضب وقتل أخاه هابيل حتى لا يفوز دونه بأخته، فكان أول صراع فى البشرية حول امرأة . . وأول صراع قاد إليه التطلُّع إلى الأمنيات المستحيلة .

ومن حق الإنسان دائمًا أن يتطلع إلى ما يحقق له سعادته .

لكنَّه ليس من حقه أبدًا أن يحلم بالثمرة المحرَّمة . . أو أن يتطلع إلى مالا ترشحه له قدراته . . أو أن يسعى إلى أهدافه بطرق غير شريفة أو مشروعة ليسبق الآخرين إلى الوصول إلى خط النهاية . . وإنما هو مطالب دائمًا بأن يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الأمور تجرى فى النهاية بالمقادير ، ولهذا فليس عليه سوى السعى بالطرق النبيلة إلى أهدافه مع ترك مساحة كافية لتدخلات القدر التى يمكن أن تحول الكرة المصوبة بدقة عن المرمى فى اللحظة الأخيرة ، فلا يضيق بذلك إذا حدث ؛ لأنه أمر متوقع من البداية . . وإنما يكرر المحاولة من جديد ويرضى عن نفسه فى النهاية سواء أصاب الهدف أم لم يصبه ؛ لأنه لم يقصِّر فى بذل الجهد واتخاذ الأسباب وكان لاعبًا شريفًا فى مباراة الحياة . . لا يضرب تحت الحزام . . ولا يتعمد إصابة منافسيه فى مقتل .

أما بلوغ الأهداف المرجوة ، فهو دائمًا شأن إلهى علينا أن نتقبل حكمه فيه راضين ، فالذين يحرصون على الكسب دائمًا وبأية وسيلة ممكنة لا تهنأ لهم حياة . . ولا يتوقف طموحهم عند حد مشروع . . ولا يسعدون بحياتهم مهما حققوا ؛ لأنهم فى لهاث دائم وراء الأهداف القريبة والبعيدة الممكنة والمستحيلة . . ولا يتقبلون أبدًا تصاريف القدر ولا احتمال الخسارة بنفس راضية ، فيصبحون من حيث لا يدرون «كمن يحرص على الكسب . . فيخسر كل شىء ويصيبه الأسى والحزن على حد قول الشاعر الإيطالى «دانتى» فى الكوميديا الإلهية .

ومن أغرب نماذج تعذيب النفس بالأحلام المستحيلة ما رواه أحد الزعماء المصريين فى مذكراته عن زميل له كان يرى نفسه جديراً برئاسة الوزراء فى عصره . . ويسعى بكل جهد لتحقيق أمله فيها . . وكلما لاحت له بشائر الانتصار حمل موج القدر المنصب الذى يحلم به لغيره . . حتى حان أجله ورقد فى فراشه يلفظ أنفاسه الأخيرة ومن حوله ذووه يبكونه . . فإذا به يفاجئهم وهو فى النزع الأخير بتلاوة «بيان الحكومة»، الذى طالما حلم بأن يقرأه أمام البرلمان . . ويروح يردد بين شهقة وأخرى «وستعمل حكومتى على . . وستعمل حكومتى على» . . وأهله يرجونه أن يرحم نفسه من هذا العذاب ويتلو الشهادتين . . فلا يستجيب لهم ويواصل تلاوة بيان الحكومة التى لم يؤلفها إلى أن فاضت روحه وهو معذَّب برغبته المستحيلة .

وشبيه بذلك بدرجة أخف ما فعله الكاتب النرويجى العظيم «إبسن» بأحد أبطال مسرحيته «البطة البرية» . . فلقد كان الرجل يحلم بأن يكون صياداً خطيراً يصيد الوحوش الضارية فى الغابة، فحالت ظروفه دون تحقيق الحلم البعيد . . وانتهى به الأمر رجلاً سكيراً يربى البط فى إحدى غرف بيته، ثم يدخل عليه ليصيده بالبندقية متوهمًا أنه يجول فى الغابات ويصيد الأسود المفترسة!

وهكذا يفعل - دائمًا - التطلع إلى الرغبات المستحيلة بالإنسان إذا لم يوطن نفسه على القبول بالخسارة والرضاء بها، كما يسعد بالفوز

حين يتحقق ويهنأ به، مع أن هذا ما تقوله لنا هذه العبارة البسيطة: خليها على الله! لكي ننجوا من العذاب والإحباط والمرارة.. فهى تقول لنا: ابذل جهدك.. واسع إلى أهدافك.. بجدية.. ثم اذهب إلى فراشك مطمئنا إلى أن عناية الله تحرسك وسوف تختار لك الإرادة الإلهية ما فيه خيرك وسعادتك سواء أدركت ذلك أم لم تدركه. فإذا فعلت ذلك، فلن تحلم بما لا تستطيعه، ولن تسجن نفسك فى سجن الرغبة وحدها.. دون أن تكون مهيئًا فى نفس الوقت لمواصلة الحياة دونها إذا لم تتحقق أو إذا حالت الظروف بينك وبينها.. أو مالت بها أمواج القدر إلى غيرك.

فالإلحاح على الحياة بالمطالب دون تخيُّل إمكان العيش بدونها لا يعنى غالبًا إلا عجز الروح والسوداوية.. والضيق بما يحققه الآخرون دوننا.

وفى بعض الأحيان تُلَقِّنَنَا الحياة بعض الدروس القاسية فى عدم الإلحاح عليها بالمطالب.. فنتعلم الدرس أحيانًا، ولكن بعد أن يكون قد دفعنا ثمنه غاليًا من سعادتنا أو صحتنا.

والذين يعرفون قصة حياة نجم السينما القديم أنور وجدى، يعرفون أنه كان فى شبابه فى غاية الفقر، ويعجز أحيانًا عن دفع إيجار غرفته فوق السطوح فيبيت فى كواليس المسرح، الذى يؤدى فيه أدوار الكومبارس.. ويقضى معظم لياليه يتضور من الجوع ولا يجد ما يسد به رمقه.. وكان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن السعادة فى

الثـراء وحده وليـست في أي شيء آخر سـواه، ويحلم باليـوم الذي يستطيع فيـه أن يرتدي أفخر الملابسً . . ويأكـل ما تشتهيه نفسـه من الأطعمة الفاخرة ويقيم في مسكن فاخر، وفي إحدى الليالي اشتد به الضيق بالفقر والحرمان، فهتف داعيًا ربه هذا الدعاء الغريب : يارب . . مليون جنيه وسرطان!

واشتهر هذا الدعاء العجيب عنه بين زملائه . . إذ لم يكن يكف عن ترديده أمامهم، ثم انتهت سنوات الحرمان، وبدأ أنور وجدي يحقق نجاحه وتحول خلال سنوات إلى فتى أول شهير ومخرج ومنتج سينمائي ناجح تحقق أفلامه نجاحًا جماهيريًا واسعًا . . وأقام في شقة فاخرة في الزمالك، وبنى عمارة ضخمة في وسط المدينة . . وحفلت موائده كل ليلة بما كان يشتهيه وهو فقير محروم من الأطعمة وبالذات الخروف المشوي والديوك الرومية .

وفجأة أحس ذات ليلة بآلام عارضة في معدته فعرض نفسه على الأطباء . . فإذا بهم يكتشفون إصابته بسرطان متأخر في المعدة، ويحرمون عليه كل أنواع الطعام الفاخر، فيمضي سنواته الأخيرة يدعو أصدقاءه إلى العشاء ويقدِّم لهم الخروف المشوي والديوك الرومية ويستحثهم أن يأكلوا بشهية ليستمتع بمرأى الطعام الشهي الذي حلم به وحرمه الفقر منه في شبابه . . والمرض في ثرائه . . بينما يكتفي هو بعشاء من الزبادي . . ولم تمض فترة قصيرة حتى مات في عز رجولته وشهرته، وأحصى ورثته ثروته في منتصف الخمسينيات فإذا بها مليون جنيه بالتمام والكمال!

فهل فهمت يا صديقى ما أردت أن أقوله لك؟

إن الحلم دائمًا بحياة أفضل تهفو إليها النفس حلم إنسانى مشروع ومطلوب، لكن ينبغى أن يكون متلائمًا مع القدرات والإمكانيات والظروف . . وينبغى أن تكون وسائلنا إليه هى الجهد والعرق والدموع وليست أحلام اليقظة وحدها . . وينبغى أيضًا أن نتعلم كيف نتقبل بسلام نفسى انحراف الكرة المسددة بدقة عن قائم المرمى دون أن يصيبنا ذلك بالعجز النفسى والمرارة .

وإنما نقول مع القائل . . ولا يعلم الغيب إلا الله .

أو نقول مع أديبنا العظيم يحيى حقى الذى أثرى الحياة بأدبه وفنه أكثر من 50 عامًا :

قد أدينا ما علينا . . فخليها على الله!

ازددت جــهلاً !

يسألنى شباب كثيرون : ماذا نقرأ لكى نصبح مثقفين؟ فأتوقف دائمًا أمام السؤال متفكرًا ولا أجد إجابة سريعة له! أما لماذا أتوقف أمامه متأملاً ، فلأنى أسعد بمن يتلمس أسباب الثقافة ويحاول أن يسلك دروبها ، وأما لماذا لا أجد إجابة سريعة له فلأن من يسألنى يتصور غالبًا أن الثقافة شيء محدد يمكن الحصول عليه بقراءة عدد معيَّن من الكتب ، فى حين أنها فى أقرب معانيها للواقع طبع أو «مزاج» فكرى يميل بصاحبه إلى طلب المعرفة وإدراك قيمة العلم . . وتذوق الأدب والتاريخ والفن الراقى . . والجمال فى كل الأشياء ، لهذا قيل دائمًا إن المتخصص الذى لا يعرف شيئًا خارج دائرة تخصصه ليس مثقفًا لكنه متعلِّم .

وليس هناك إذًا كتب معينة إذا قرأتها تصبح مثقفًا ثقافة كاملة ، ولكن هناك طبع ثقافى إذا اكتسبته اكتسبت عادة القراءة . . والتأمل . . وعرض الأشياء على عقلك للتفكر فيها وتقبل منها ما يقبله العقل وترفض منها ما يرفضه . . وعادة البحث عن الحقيقة

والتساؤل عن دلالات الظواهر والأشياء والكلمات والاصطلاحات التى تسمعها ولا تفهمها فتضيف إلى معارفك كل يوم جديداً . . وتكتشف أن فى الحياة ملذات ومُتَعَ أخرى عدا لذة الطعام والشراب والمتع الحسية ، ثم تكتشف بعد ذلك . . كل يوم . . أن ما لا تعرفه أكثر بكثير مما تعرفه ، ومما ينبغى لك أن تعرفه وأن بحر المعرفة كبحر العشق عند الشاعر الفارسى «الفردوسى» . . بلا شطآن!

لهذا فإن الفارق الحقيقى بين المثقف وغير المثقف ، هو أن الأول يعرف أنه ليس مثقفًا ويطلب المعرفة وسيظل يطلبها إلى أن يموت ، والثانى لا يعرف أنه غير مثقف أو يعرف ويرضى لنفسه بذلك أو يعرف ذلك ولا يرضى به لكنه يفتقد الإرادة التى تدفعه لأن يكتسب المعرفة .

فالثقافة كالعبادة عند الصوفية تحتاج إلى «همة» لإدراكها وليس إلى مجرد الرغبة فيها ، «ومن قلَّت همته . . ضعفت محبته» كما يقول القطب الصوفى أبو بكر الشبلى ، والهمة عند الصوفية هى «التشمير والجد فى ا لعبادة» والمحبة عندهم هى «اتباع أوامر المحبوب واجتناب نواهيه» أما المحبوب فهو الله سبحانه وتعالى الذى يعبدونه حبّا فيه وليس خوفًا من عقابه . . لأنه «أهل لذاك» .

وأول من اشتهر «بالهمة» فى طلب المعرفة هو «سقراط» الذى راح يجوب الشوارع والأسواق . . يبحث عن معانى الأشياء ،

ويسأل من يلتقى به : ما الإنسان؟ ما ا لخير؟ ما القانون؟ ثم يتجاوز الأسئلة إلى التقريع المباشر فيقول : ألا تشعر بالخجل حين تهتم بالمال وحده، ولا تحرص على الحكمة ولا تعبأ بالحق، ولا تعمل على ترقية نفسك. . حتى ضاقت به أثينا، فاجتمع 502 من تجارها وملاحيها وحاكموه بتهمة «إنكار آلهة المدينة وإفساد عقول الشباب». . وحكموا عليه بالموت.

وحين كنت فى باريس فى ا لشهر الماضى، دعيت إلى ندوة فى جمعية حوار الثقافات لمناقشة كتبى، وسألنى رئيسها قبلها بأيام وهو يعد بحثًا عنى ليلقيه فى الندوة عن مصادر «ثقافتى». . فقلت له متحيرًا لا أستطيع أن أحدثك طويلاً عن مصادر ثقافتى. . لكنى أستطيع إذا أردت أن أحدثك كثيرًا عن مصادر جهلى وعن قصور همتى عن إدراك كل ما تمنيت إدراكه منذ بدأت عندى عادة القراءة فى سن الصبا، وكنت صادقًا فيما قلت له؛ لأنه كلما تقدم بى العمر تفتحت لى أبواب جديدة من المعرفة أدركت بالقياس لها أننى مازلت «أبلبط» فى مياه الشاطئ الضحلة. . وأنا أتوهم أننى قادر على عبور المحيط اللامتناهى!

لهذا لم أعجب لقول المفكر الكبير الذى قال ذات يوم : كلما قرأت. . كلما ازددت جهلاً! أى كلما أدرك أن بحر المعرفة لا حدود له. . كما لم أعجب حين قرأت ما قاله الأديب الفرنسى جوستاف

فلوبير (1821 - 1880) : إن أول جاهل تقع عليه عينى هو أنا . . كلما ذهبت إلى المرآة فى الصباح لأحلق ذقنى!

لذلك لم أتردد حين سألتنى صحفية شابة منذ فترة : من هو المثقف المثالى فى رأيك؟ أجبتها : ليس هناك مثقف مثالى فى هذا الكون كله سوى الله سبحانه وتعالى الذى وسع علمه كل شىء، أما من عداه فطلاّب ثقافة ومعرفة يطلبونها من الميلاد إلى الممات وما يدركون منها إلا قليلاً! ألم تلاحظ مثلاً أن من أسماء الله الحسنى . . أنه العليم . . الواسع . . الحكيم . . الهادى . . الرشيد . . الخبير . . البصير . . السميع . . المحصى وكلها من معانى المعرفة والرشد والحكمة؟

هذه هى الحقيقة . . ولا يأس مع الثقافة وطلب العلم . . لكن المشكلة أننا مغرورون بالقليل الذى أدركناه ونحكم به على الآخرين ونجعل من أنفسنا قضاة عليهم، كما أن بعضنا مصاب بداء الادعاء والفشر الثقافى، الذى يثبط همة الآخرين، ويعجزهم عن بدء رحلتهم لطلب المعرفة فى أى مرحلة من العمر .

فى شبابى كنت أسهر كل ليلة مع شلة من الأدباء والفنانين بمقهى الفيشاوى . . نتسامر فى الأدب والفن وأحوال الدنيا، وكان من بيننا ممثل شاب لأدوار العنف فى السينما . . يتميز بجسم ضخم وقلب طيب، وكان من هواة الادعاء الثقافى، فقال لنا فى اندفاعة

ثقافية ذات ليلة: لقد قرأت حتى الآن 20 ألف كتاب! ثم نظر إلينا متربصًا لأية محاولة لتكذيبه، فتقفلت نظرى بين رأسه الصغير الذى لا يبدو عليه أنه قد استوعب معارف 50 كتابًا.. وعضلاته المفتولة.. وقاومت رغبتى القاتلة فى الضحك، وسكت، ولكن عقلى المتمرد الذى كثيرًا ما أوردنى موارد التهلكة لم يسكت.. فقد راح يفكر.. ويحسب، ووجدت أننى رغم إدمانى للقراءة منذ الصبا، لا أكاد أقرأ أكثر من 60 أو 70 كتابًا كل عام إلى جانب عملى وشواغلى الأخرى.. إذًا فإنى أقرأ فى المتوسط كل 10 أعوام من عمرى 700 أو 800 كتاب، لا أكثر، وصديقى هذا فى الخامسة والثلاثين من عمره ويعمل كثيرًا وليس من المنقطعين للقراءة والعلم، ولا أظن أن ظروفه تسمح له بأن يقرأ بأسرع من المعدل الذى أقرأ به.. إذًا، فصديقى هذا عمره الآن نحو 200 سنة! وسعدت بهذه النتيجة «المنطقية» وقلت له على الفور: الله أكبر.. إذًا فكيف حققت معجزة الاحتفاظ بشبابك رغم أنك من سلالة سيدنا نوح الذى عاش 950 سنة؟ وشرحت للأصدقاء فكرتى فانفجروا ضاحكين، وكان أعلاهم ضحكًا وصخبًا هذا الصديق الطيب نفسه! الذى لم يعلق على ما قلت بأى شىء لكنه أصبح معروفًا بيننا بعدها بأنه ابن سيدنا نوح!

والغريب أن هذه الآفة ليست مقصورة على أدعياء الثقافة وحدهم، فلقد قرأت فى مذكرات الدكتور لويس عوض -

رحمه الله - وكان موسوعى الثقافة دائم الاطلاع . أنه كثيراً ما قرأ أن مكتبة فلان أو فلان «من أعلام الأدب والفكر» تضم 25 ألف كتاب أو 20 ألف كتاب، وكان يصدق ذلك حتى كلَّف سكرتيرته بتنظيم مكتبته الخاصة وفهرستها فلم يجد بها أكثر من 5 آلاف كتاب! بعد 50 عاماً من الانقطاع للثقافة والقراءة!

ومع ذلك كله، فإن ثقافة الإنسان لا تقاس بعدد ما قرأ من الكتب وإنما بما استوعب منها، وبنوعية هذه الكتب نفسها وقيمتها الفكرية، وبما أضافه هو إلى معارفه بالتأمل والتفكير والتحليل والمقارنة وملاحظة الحياة.

وهذا ما أقوله دائمًا لمن يطلبون منى أن أحدد لهم قائمة بأسماء بعض الكتب التى تقدم لهم مفاتيح الثقافة . . أو يبدأون بها رحلتهم إليها. فإذا ألحوا علىَّ فى ذلك، طلبت ممن يسألنى أن يقرأ كتاب الله قراءة واعية متأنية، وحبذا لو استطاع أن يقرأ الكتب السماوية كلها؛ ليعرف أنها كلها خلاصة للقيم الأخلاقية والروحية التى تحقق للإنسان سعادته الحقيقية فى الدنيا والآخرة إذا التزم بها، وأن يقرأ كتابا عن حياة الرسول وأحاديثه وأقواله، وكتابًا مختصراً عن تاريخ العالم . . ليعرف «أصل الحكاية» ويدرك أن التاريخ حلقات متتابعة، وأرشح لمن يسألنى دائمًا كتاب «موجز تاريخ العالم» للأديب الإنجليزى ج . هـ ويلز، أو كتاب «تاريخ العالم» من إعداد مجموعة من العلماء بإشراف سير جون . أ . هاملتون، أو كتاب

«قصة الحضارة» لوول ديورانت وكلها مترجمة إلى العربية وكتاب «الأبطال» لتوماس كارلايل وهو مترجم أيضًا، وكتاب «الخالدون مائة . . أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم» للأستاذ أنيس منصور عن كتاب «المائة تقويم لأعظم الناس أثرًا فى التاريخ» للعالم الفلكى الرياضى مايكل هارت . .

وقد قرأت بالمناسبة مؤخرًا فى صحيفة الديلى ميل البريطانية أنه أصدر طبعة جديدة منه، أضاف إليها شخصية ميخائل جورباتشوف الزعيم السوفيتى السابق، واحتفظ فيها بالصدارة للرسول عليه الصلاة والسلام، ثم كتابًا عن التاريخ الإسلامى ومن أفضلها فى رأيى مجموعة كتب الأستاذ أحمد أمين «فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهور الإسلام»، ومن أهمها أيضًا كتاب الدكتور حسين أحمد أمين «المائة الأعظم فى تاريخ الإسلام»، ثم كتابًا أو كتابين عن تاريخ بلادك لتعرف جذور حضارتك وشخصية بلادك وهى كتب كثيرة . .

لكنى أستمتع بقراءة كتاب ليس من كتب التاريخ لكنه عمل أدبى رائع للأستاذ نجيب محفوظ اسمه «أمام العرش» يستدعى فيه كل ملوك ورؤساء مصر منذ فجر الحضارة أمام محكمة التاريخ، ويقيِّم مسيرتهم وأعمالهم ، ثم كتابًا فى تاريخ الفلسفة ومن أفضلها فى تقديرى كتاب الدكتور مراد وهبة «قصة الفلسفة»، ثم كتابًا أو كتابين عن تاريخ الفكر والعلم والأدب، ومن أحبها إلىَّ كتاب «أعلام

الفكر الأوروبى من سقراط إلى سارتر» ، وكتاب : «هؤلاء علمونى» لسلامة موسى ، وكتاب «تاريخ الأدب العربى» للأستاذ أحمد حسن الزيات ، وبعد ذلك اقرأ ما يقع بين يديك من الأعمال الأدبية للأدباء العظام والمعاصرين . . لأن المهم كما قلت لك ليس عدد الكتب وإنما اكتساب المنهج العلمى فى التفكير ، الذى يطالبك دائمًا بامتحان الأشياء للتثبت من صحتها قبل الاقتناع بها . .

كما يؤهلك للاستعداد لتغيير رأيك إذا تبين لك خطؤه ، ثم أهلاً بك بعد ذلك فى بحر الحيرة وطلب المعرفة إلى نهاية العمر . . وثق من أنك سوف تضيف بما تقرأه إلى عمرك «الحقيقى» عمرًا ثقافيًا آخر كعمر سيدنا نوح أو أطول . . بغير حاجة للادعاء بأنك من سلالته!

لحظة من فضلك !

جلست إلى مكتبى لأكتب هذا المقال، فراودنى كالعادة نفس الخاطر الذى يراودنى كلما أمسكت بالقلم لأكتب. . وهو أن أؤجل معاناة الكتابة قليلاً لأستمتع أنا بقراءة ما يعانى غيرى ليكتبه.

لكن اليوم هو اليوم الأخير لدخول المجلة للمطبعة، فوداعًا لمتعة القراءة مؤقتًا. . قررت أن أكتب مقالاً عن دور الحظ العاثر فى حياة الإنسان، جاءتنى الفكرة من صديق شكا لى من حظه العاثر الذى يؤخر تقدمه فى عمله؛ ففكرت فيما قال طويلاً. . وقلت لنفسى لم ينكر أحد دور الحظ فى صنع النجاح، لكنه بالتأكيد ليس العامل الوحيد فيه. . فالكفاءة والقدرة والعمل الدءوب هى أساس كل النجاح. . أما الحظ فإنه قد ييسر الطريق، أو يقصره لكنه وحده لا يكفى أبدًا لصنع النجاح أو استمراره.

إن إيمانى دائمًا هو أن كل إنسان مطالب بأن يؤدى واجبه على أكمل وجه، وأن يسلّح نفسه بالقدرات والإمكانيات التى ترشحه

للنجاح وعليه بعد بذلك أن يدع الأمر لموزع الحظوظ والأرزاق إن شاء منح . . وإن شاء منع أو أجَّل جوائزه إلى الوقت المناسب . .

وفى كل الأحوال فمن أدى واجبه بإخلاص لابد أن ينال عائد عطائه لعمله ولواجبه وللحياة بوجه عام ذات يوم . . قد يسبقه آخرون فى بعض أشواط السباق . . لكنه لابد أن ينال فى النهاية ما يستحقه من نجاح وتقدير ذات يوم ، فإن أصرت الحياة على تجاهله ففى السماء رزقكم وما توعدون . . ويكفى المرء دائمًا إحساسه بالرضا عن نفسه لأنه لم ينل شيئًا لا يستحقه ولم يدفع فاتورته من الجهد المخلص والعناء ، وأنه من هؤلاء الذين أعطوا للحياة أكثر مما أخذوا منها وليس من الحياة والمحصلين الذين ينالون من الحياة أكثر مما يستحقون ومما يعطون . . أما «كيمياء الحظ» التى تحدث عنها الشاعر قائلاً :

وَلِلحظِّ كِيمْياءُ إذَا عرفْتَها إذا مسَّ كلبًا أحَالهُ إِنسَانًا

فلست من المؤمنين بها كثيراً . . لأن الحظ أحد عوامل النجاح وليس كل أسبابه أو عوامله . .

تذكرت عند هذه النقطة قصة جميلة كتبها أمير القصة القصيرة أنطوان تشيكوف عن تأثير الحظ فى حياة البشر . لحظة لأقف وأنزل الكتاب الذى يضمها من المكتبة . إنها قصة عبقرية جميلة تثير التأمُّل والتفكير وربما تعتبر أقصر قصة فى العالم ، فقد كتب يقول :

منذ أربعين سنة، وعندما كنت فى الخامسة عشرة من عمرى، عثرت فى الطريق على ورقة مالية من فئة العشرة روبلات، ومنذ ذلك اليوم لم أرفع وجهى عن الأرض أبدًا، وأستطيع الآن أن أحصى حصيلة حياتى وأن أسجلها كما يفعل أصحاب الملايين فأجدها هكذا:

«2917 زرارًا، 244172 دبوسًا، 12 سن ريشة، 3 أقلام 1 منديل.. وظهر منحن وحياة بائسة!».

ولا غرابة فى ذلك، فالاعتماد على الحظ وحده.. وانتظار ضربة من ضرباته لا يورث الإنسان إلا هذا الميراث العادل: ظهرًا منحنيًا.. وحياة «بائسة»!

فالأحلام لا تحقق إلا بالكفاح.. أما الحظ فإنه يذلل لك فقط صعوبات الطريق.

صحيح أن هناك مفارقات غريبة قد تشهدها حياة الإنسان.. فتقرب إليه هدفًا عزيزًا من أهداف حياته أو تبعده عنه.. لكن هناك دائمًا قدرات هذا الإنسان التى كانت تنتظر الفرصة لتعبر عن نفسها وترشح صاحبها للنجاح إذا أتيحت له هذه الفرصة.. تذكرت فى هذه اللحظة قصة مخترع دواء الستربتومايسين مع الحظ.. لحظة من فضلك لأحضر الكتاب الذى يرويها. إنه البروفيسور سلمان أ. وكسمان الذى كان أستاذًا بإحدى كليات جامعة روتجرز الأمريكية،

وقد لاحظ المشرفون على الجامعة أنه لا يفعل شيئًا طوال العام سوى أنه يتلهى بتجارب لا تنتهى على الميكروبات، وأنه قضى عدة أعوام فى تجاربه هذه بلا نتيجة حتى أصبحت تبدو لهم نوعًا من العبث الذى يكلف الجامعة الكثير، فاجتمع مجلس الجامعة فى شتاء عام 1941 لمناقشة الأزمة المالية التى تواجهها، واقترح أحدهم الاستغناء عن هذا الأستاذ الكسول الذى يتسلى بتجارب الميكروبات بلا طائل وتوفير مرتبه وتكاليف هذه التجارب.

واقتنع معظم أعضاء المجلس بصواب الفكرة، وكادوا يتخذون قرارًا بفصله لولا أن عميد الكلية التى يعمل بها الأستاذ الكسول كان حاضرًا الاجتماع بالمصادفة، ولم يكن مواظبًا على حضور اجتماعات المجلس، فأصر على تقديم استقالته إذا اتخذ مجلس الجامعة هذا القرار، فتردد الأعضاء فى التضحية به ووافقوا على مضض على استمرار د. وكسمان فى عمله، فلم يمض عامان حتى كان قد توصل إلى الستربتومايسين الذى اعتبر من أهم العقاقير فى تاريخ الطب وقتها، وأنقذ حياة الملايين من مرضى الدرن والتيفود والسعال الديكى والأنفلونزا، ونشأت عليه صناعة ضخمة وكسب الأستاذ الكسول من اكتشافه الملايين وأصبح أكبر المتبرعين لنفس الجامعة التى أرادت فصله منذ عامين!

أما دور الحظ فى قصته ففى حضور عميد كليته اجتماع مجلس الجامعة، الذى عرض فيه اقتراح فصل وكسمان.. وفى صموده فى

وجه المعارضين فى استمراره، وقد كان من الممكن ألا يحضر . . وألا ينجح فى التصدى للقرار فتخسر كليته هذا الإنجاز الكبير، أما العوامل الأخرى فهى فى علم هذا الأستاذ ودأبه على إجراء تجاربه التى أهلته لاكتشاف العقار؛ إذ لو كان لاهيًا وعابثًا حقًا كما تصوروا لما أفاده موقف عميد كليته منه سوى تأجيل قرار فصله عامين أو ثلاثة فالحظ يطرق الأبواب نعم . . لكن لابد من «مضيف» جاهز ومستعد بالقدرات والإمكانيات والاستعداد للعمل والكفاح لاستقباله وإلا فلن يتجاوز عتبة الباب .

وهذا ما تؤكده أيضًا قصة الممثل الأمريكى الذى أحبه جيلنا : فان جونسون ـ لحظة لإحضار الكتاب الذى يروى عنه ـ فقد بدأ حياته ممثلاً مسرحيًا فى نيويورك، ثم تعاقدت معه أفلام وارنر ليظهر فى أفلامها وانتقل إلى هوليوود، فلم تمض 6 أشهُر حتى أنهت الشركة عقده، وقالت له إنه لا يصلح ممثلاً سينمائيًا، فقرر العودة إلى نيويورك ونسيان حلم السينما . . وأبلغ مالك العمارة أنه سيترك شقته بعد أيام للسفر وطلب من شركة التليفونات رفع تليفونه وحزم حقائبه استعدادًا للسفر فى اليوم التالى، لكن أقرب أصدقائه وهما ممثلة أمريكية وزوجها أصرا على دعوته للعشاء لتوديعه فى مطعم أحد الفنادق وذهب متضررًا؛ لأنه كان يفضل أن ينام مبكرًا ليلة السفر، فدخل القاعة مصادفة منتج سينمائى شاهد الممثلة وزوجها، فاتجه إليهما ليحييهما فقدما له جونسون وعرف منهما قصته فطلب

منه زيارته فى اليوم التالى بمكتبه، واعتذر جونسون بأنه سيسافر فى الغد، فلم يقبل الاعتذار وألح عليه فى تأجيل سفره يومًا واحدًا، وأحرج الرجل فوعده بالزيارة وزاره فى مكتبه فإذا به يعرض عليه عقدًا مع شركته لفترة طويلة، فاعتذر له على الفور؛ لأنه قد كره هوليوود ويريد العودة إلى موطنه، وألح الآخر حتى اضطر جونسون تحت تأثير الحرج وحده أن يستجيب ويوقع العقد.

وخرج من مكتبه وهو يلوم نفسه على ضعفه مع هذا الرجل، فإذا بهذا الضعف هو الذى يصنع نجاحه وشهرته لأكثر من 40 سنة، مسألة حظ! نعم.. فى ذهاب المنتج السينمائى إلى مطعم الفندق تلك الليلة.. لكن ماذا يجدى لقاء المطعم ولا تحرير العقود، لو لم يكن جونسون موهوبًا ومخلصًا فى عمله وقادراً على العطاء له؟ هل تعرف بالمناسبة من هو أكثر قواد التاريخ الذين لم يتخل عنهم الحظ السعيد مرة واحدة طوال حياته القصيرة، على عكس نابليون الذى رافقه التوفيق فى صعوده وتألقه، ثم تخلى عنه إلى أن انتهى إلى هزائمه وانتهائه إلى النفى والعزلة.

وعلى عكس معظم القواد، الذين لم تخل حياتهم من هزائم إلى جانب الانتصارات وربما يكون لقصر عمر الإسكندر دخل فى محالفة التوفيق له من البداية للنهاية.. لكنه أيضًا كان مؤهلاً لهذا التوفيق العظيم بقدراته القيادية والعقلية والعسكرية الفذة التى تبدت فيه واضحة منذ الصغر، وإلى جانب قدراته الخارقة فقد كان أيضًا مستقيم الطبع، حاد الشعور، قادراً على ضبط النفس.

تذكرت فى هذه اللحظة قصة طريفة لا علاقة لها بالحظ عن أبيه فيليب المقدونى. لحظة من فضلك . . فقد روى أنه أرسل رسالة إلى أعدائه فى إقليم لاقونيا يقول لهم فيها : إذا استوليت على بلادكم فسوف أسحق أهلها سحقًا، فأجابوه برسالة تثير الغيظ من كلمة واحدة هى : إذا! ولأن الرد يغيظ فعلاً . . فلقد كانت لاقونيا من أوائل الأقاليم التى أخضعها الإسكندر حين تولى القيادة لكنه لم يسحق أهلها؛ لأنه كان قائدًا عظيمًا . . والقائد العظيم هو القائد القادر على ضبط نفسه وعدم الانسياق وراء انفعالاته . . فهل صدقتنى إذًا فى أن الحظ وحده ليس كل مؤهلات النجاح .

إذا لم تكن قد صدقتنى فإننى مستعد لأن أروى لك عشرات القصص الأخرى، لكنى تعبت من تكرار الوقوف إلى رفوف المكتبة . . والعودة للجلوس إلى المكتب مع ما أعانيه من آلام الظهر، فصدقنى بغير دليل آخر هذه المرة . . أو انتظرنى إلى مقال آخر بإذن الله .

يا ليلة العيد .. «وجعتينا» !!

أحب ليلة العيد وصباحه، وبعد ذلك أفقد الإحساس به فيتشابه معه عندى مع بقية الأيام. وما أكثر ما قضيت العيد خارج مصر خلال زياراتى العديدة لدول العالم، لكنى وجدت نفسى ذات ليلة عيد فى أبعد مكان عن بيتى وأسرتى وبلدى. . فى هلسنكى عاصمة فنلندا فى أقصى الطرف الشمالى من الكرة الأرضية. .

كيف سافرت إليها قبل عيد الفطر بيومين «والمغرب» «يؤذن» هناك قرب منتصف الليل. . والفجر يلاحقه بالظهور بعد ساعتين فقط؟ لا أعرف! لماذا اخترت هذا التوقيت لقبول دعوة لزيارة هذه الدولة الاسكندنافية الصغيرة؟ حماقة من حماقات «الكهولة» بغير شك، وربما خفف منها ما علمته من أن المسلمين هناك - وهم قلة - يفطرون على مواقيت أقرب بلد إسلامىٍّ لهم وهى تركيا، فى التاسعة والنصف مساء! أما ليلة العيد فى هلسنكى، فقد كانت

مفاجأة أعدها لى سفيرنا هناك - وقتها - السفير أحمد أمين والى . فقد قال لى : سنتناول الإفطار فى بيت أحد المصريين المقيمين فى هلسنكى، وسأرسل إليك السيارة لتصطحبك من الفندق وذهبت إلى بيت هذا المصرى . . ودخلت الصالون . . فوجدت فيه المفاجأة : شيخ مصرى قارىء للقرآن بالإذاعة والتليفزيون اسمه على ما أتذكر إسماعيل أحمد . . من أين جاء هذا الشيخ؟! وكيف ظهر فى القطب الشمالى بعمامته البيضاء المنمنمة . . وجبته الزرقاء الأنيقة؟

هذا ما عرفته من السفير أحمد والى . . فقد طلب من وزارة الأوقاف قارئًا للقرآن ليحيى ليالى رمضان فى هذه الدولة النائية فأرسلوا إليه هذا الشيخ . . واحتفل به المسلمين هناك احتفالاً كبيرًا . . فقد كان أول شيخ يرتل آيات الذكر الحكيم فى الطرف الشمالى من الكرة الأرضية . أما الشيخ فهو شاب مهذب رقيق خجول وعفيف النفس . . وأما صوته فقد كان مفاجأة سارة لى . . وأما الضيوف فقد كانوا مصريين مهاجرين إلى فنلندا؛ مسلمين ومسيحيين وسفراء عرب . . وقد نظر الشيخ إسماعيل . . ساعته . . ثم وقف، وفجأة انساب صوته الجميل مرددًا : الله أكبر . . الله أكبر . . أشهد أن لا إله إلا الله .

يا إلهى إنه الأذان الوديع الذى يطرب النفوس . . ويثير الخشوع فى القلب . . ويستدر الدموع فى هذه البقعة النائية من الأرض .

لا أعرف من أين جاءنا البعض فى السنوات الأخيرة بهذا الأذان الزاعق المتجهم الذى يثير الفزع فى القلوب وليس الخشوع . . إنه أذان حرب يستحث الجنود على الصلاة فوق خيولهم بغير أن يفقدوا تأهبهم للقتال وليس أذان سلام . . فمن أين جاءنا البعض به؟ وأين «ندى» الصوت وهو شرط من شروط المؤذن، وقد نهى الرسول الكريم أحدهم عن الأذان لجهامة صوته، وقال له ما معناه دع بلالاً يؤذن فهو أندى منك صوتًا ! ولم يقل وهو أعلى منك صوتًا، أو أكثر رهبة!

«وندى الصوت» كان موجودًا بوفرة فى حنجرة الشيخ إسماعيل . . وقد فرغ من الأذان، فقام المسلمون من الحاضرين لأداء صلاة المغرب فى إحدى غرف الشقة، ووقف أطفال صاحب البيت على باب الحجرة يرقبونهم فى اهتمام وبعد الصلاة اجتمع الكل حول مائدة الإفطار؛ مسلمون ومسيحيون . . وهنيئًا أكلنا ومريئًا شربنا وتلذذنا بمذاق الخشاف وقمر الدين! وإلى الصالون عدنا فما إن استرخينا فيه قليلاً حتى خلع الشيخ حذاءه وتربع فى مجلسه، ثم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . بسم الله الرحمن الرحيم . . وعزفت ألحان السماء على أوتار صوته . . نغمًا ملائكيًا ساحراً . .

أما الشمس فقد كانت مازالت تلون السماء بلون الشفق الغامض . . وأما صوت الشيخ إسماعيل وآيات الذكر الحكيم على

لسانه فى هذا الطرف البعيد من الدنيا . . فلقد عقدا لسانى من التأثر وتندت لهما عينى . . وأما زوجة صاحب البيت وهى فنلندية مسيحية فقد وقفت على باب الصالون والدموع تسيل من عينيها . . وأما السفير الذى يجلس إلى جوارى فكان سفير فلسطين هناك، وقتها .

وقد كان نفس هذا الجمع مدعواً فى بيته قبلها بأيام، وعزف الشيخ فى صالون بيته نفس الألحان السماوية . . فبكت - كما حكى لى - زوجته الرومانية المسيحية وازداد بكاؤها حين ترجموا لها ما يقرأه الشيخ من سورة مريم . . وكيف فضلها ربها على نساء العالمين . . وقالت له إن كل الأديان واحدة ومعانيها سامية . . فقلت له لا عجب، فإن التراتيل الدينية المسيحية تستدر دمعى رغم أنى لا أفهم منها حرفًا واحداً .

وتذكرت يوم أن كنت فى مطار فيينا لأنهى إجراءات الحجز فى أحد مكاتب الطيران فشاهدت مجموعة من أبناء طائفة دينية أمريكية كانوا فى زيارة لأبناء طائفتهم فى فيينا . . وانتهت الزيارة وحل موعد السفر . . وجاءوا لتوديع ضيوفهم فى المطار فوقف الجميع رجالاً ونساءً فى حلقة دائرية وأمسكوا بأيدى بعضهم البعض . . ووقف فى وسطهم «شيخهم»، ثم أنشدوا تراتيل دينية جميلة لم أفهم حرفًا منها . . ومع ذلك فقد هزتنى وأثارت شجونى .

هل تختلف هذه الحلقة فى شىء عن حلقة الذكر عند الصوفية؟

وزوجة الشاب المصرى الذى استضافنا فى ليلة العيد من طائفة دينية فى فنلندا شبيهة بهذه الطائفة، ولها فروع فى أمريكا. . ولهم زيارة سنوية يلتقون فيها فى فنلندا ويقيمون فى الخيام وينشدون الأناشيد، ويرفضون مظاهر التحرر الغربى «فى مظهر النساء» ويحرمون على نسائهم الماكياج والرقص والملابس القصيرة والمكشوفة. . وأبوها «صعيدى» فنلندى له 13 بنتًا، يقول لكل منهن عند زواجها: من تترك زوجها أو تطلق منه لا تدخل بيتى !

والدِّينُ لِلدَّيَّانِ جَلَّ جَلالُهُ

لَو شَاءَ رَبُّكَ وَحَّدَ الأَقْوامَا

كما قال أمير الشعراء. . والله واحد فى كل مكان وزمان. . والتدين الصحيح يرقق الطبع ويهذب النفوس. . ويفجر ينابيع الرحمة والعطف عند صاحبه على الإنسان والحيوان وكل الكائنات، وأحد الصوفية كان يتحرج من قتل النمل خشية أن يكون فى ذلك إثم، ويقول: من يدرينى أنها لن تحاجينى عند رب العرش العظيم بأنى قد قتلتها بغيًا وعدوانًا. . ورسولنا الكريم دعا لمن سقى كلبًا يلهث من شدة العطش وقال: فى كل ذات كبد رطبة أجر. فكيف يارب بمن يقتلون عبادك الآمنين ذوى الأكباد البشرية فتنفطر عليهم أكباد ذويهم؟

والشيخ إسماعيل مازال يقرأ آيات الذكر الحكيم . . والدموع من حولى تترقرق فى العيون . . والشمس الأرجوانية تلقى على المكان الذى جمع بيننا على غير موعد فى أقصى أركان الدنيا ظلالاً موحية، والقلب مثقل بأحزان كامنة فى الزوايا تنتظر دائمًا من يستدعيها ، كما تنتظر المياه الجوفية أى ضعف طارئ فى قشرة الأرض فتضغط عليها وتنساب منها .

والضعف قد تحقق والحمد لله بهذه الجلسة المشحونة بالشجن . . فغرقت فى أفكارى، حتى كدت أهتف للشيخ بعد قليل : كفاية . . حرام . . كما يفعل جمهور الكرة فى بلادنا!

كما فعلت ذات مرة مع صديقى الفنان سمير الإسكندرانى فى جلسة ببيت شيخ سمح النفس من الصوفية ، فقد سمعنا من الشيخ كلامًا يثير الخشوع فى القلب . . ويحرِّك الأشجان . . ثم أنشد سمير الإسكندرانى إنشادًا صوفيّا جميلاً، فطربت له فى البداية . . ثم «اضطربت» له فى النهاية، وهمست له مع أننى من عشاق صوته العريض الجميل : أرجوك كفاية . . لا أستطيع احتمالكما معًا أنت والشيخ فى ليلة واحدة!

وسهرة ليلة العيد، فى بيت ذلك المصرى المهاجر إلى فنلندا، انتهت قرب منتصف الليل بعد أن أسعدتنى وأبهجتنى وأوجعت قلبى، وعدت إلى فندقى والشمس لم تكد تغرب منذ قليل ؛ ولم أتعجب لذلك ففنلندا تقع فى أقصى الطرف الشمالى من الكرة الأرضية، وثلثها؛ أى منطقة اللاب لاند تقع عند سقف الأرض،

والشـمس لا تغـيب عن هذه المنطقـة ليـلاً أو نـهـاراً طوال شـهـور الشتاء . . وتستطيع أن تراها فى منتصف الليل قرصًا مغلفًا بالضباب والحمرة يثير فى النفس التأمل والخشوع .

وقـد زرت هذه المنطقـة وصعـدت إلى أعـلى قـمم جـبـال الجليـد فيها ، فرأيت منظراً قد يراود الإنسان فى الأحلام أحيانًا حين يسرف فى الخيال . . فقد نظرت يمينًا فرأيت الشمس تطل على الكون . . ونظرت شمـالاً فرأيت القـمر يتربع فى كبـد السمـاء . . فلم أتمالك نفسى ، وكنَّا فى الصبـاح وليس فى الليل ، فـهـتفت : سبـحـان رب العرش العظيم .

لكنى لم أتعجب لأن هذا المشهد لا يتحقق سوى فى أقصى طرف من الدنيـا فى الشـمـال وفى الجنوب عند «سـقف» الأرض ، وحيث يستطيع من يقف على أعلى نقطة فيـه أن يرى الشـمس والقـمـر ، وينبهر برؤيتهما معًا كما انبهرت ، ورغم جلال المشهد وغرابته فليست الأرض والشمس والقمر سوى نقطة صغيرة من ملكوت الله الذى لا تحده حدود والذى لا نعرف عنه إلا قليل . .

فالأرض الواسعة التى يفخر بنفسه من طاف حولها ليست على حد تعبير عالم الفيزياء موارى جل مان : سوى «كوكب صغير يدور حول نجم تافه» أى الشمس ، فى مجرة صغيرة» أى «المجموعة الشمسية» وسبحان من له ملك السموات والأرض . . وهو فوق كل ذى علم عليم . .

والجهة الداعية أرادت أن «تسرني» فرتبت لي . . وأنا فوق أعلى قمة جبل الجليد عند سقف الدنيا أن أركب زحافة الجليد التي يجرها حيوان الرنة القطبي الشهير الذي يشبه الجدي الضخم . . وقد أعدوا لي الزحافة وارتدوا القفازات الواقية ليمسكوا بحيوان الرنة في حظيرته ويسرجوه فيها . . وظلوا يدورون حوله وهو يراوغهم ويهرب منهم حتى استطاعوا بعد عشرة دقائق أن يمسكوا به وأنا أرقب المشهد باستمتاع شديد، ثم أسرجوه في الزحافة وقالوا لي : تفضل فقلت : شكراً لا أريد! إذ هل أنا مجنون لكي أركب زحافة يجرها حيوان قطبي ، لم أره في حياتي سوى على صفحات الكتب . . وقد يسرح بي في بحر الجليد الذي لا نهاية له ولا أستطيع إعادته إلى حيث ركبت ودرجة الحرارة تحت الصفر بعشرين درجة . . وملابسي رغم ثقلها لم تمنع وجهي من التجمد خلال الدقائق التي استمتعت فيها برؤية عملية الإمساك به!

وقالوا لي : لا تخف . . إنه سهل السيطرة عليه . . فقلت : شكراً لا أريد . . فأنا من رجال «الملاحظة» ، لا من رجال المغامرة! وقد «لاحظت» واستمتعت واكتفيت!

وتذكرت حكاية الأديب الفرنسي جوستاف فلوبير مع تلميذه كاتب القصة الذي تستهويني أعماله : جي . دي موباسان . . فقد لخص له روشتة النجاح الأدبي ككاتب قصة في 3 خطوات ، فقال له : لاحظ الحياة . . ثم لاحظ الحياة . . ثم لاحظ الحياة! أي اهتم

بمراقبة الناس والحياة ومعرفة تفاصيل شئونهم، حتى إذا كتبت عنهم كنت أكثر فهمًا لهم، وعمل موباسان بنصيحته، وطبقها على فلوبير نفسه حين مات فجاء إلى بيته وانشغل حتى عن توديعه بملاحظة كل ما يجرى من تفاصيل خلال عملية إعداد الجثمان . . وخلال الجنازة ومراسم الدفن، لكى يستفيد بكل ذلك إذا كتب قصة تتضمن مشاهد مماثلة!

والمصريون المهاجرون إلى فنلندا لا يتجاوز عددهم نحو 300 مصرى، يشكلون نحو 130 أسرة فقط . . ففنلندا رغم قلة عدد سكانها الذى لا يتجاوز 5 ملايين لا تفتح أبوابها لأحد إلا بصعوبة شديدة، وأول مصرى دخلها كمهاجر كان منذ 41 سنة فقط . . وهى من أرقى الدول صناعيًا وتكنولوجيًا، وتحتل المرتبة الرابعة عشرة فى العالم من حيث متوسط دخل الفرد، والمصريون هناك يعملون فى المصانع . . وقلة منهم من رجال الأعمال، لهم مكاتب للاستيراد والتصدير والترجمة.

ومشكلة المصريين هناك الأولى هى أبناؤهم . . من يعلمهم دينهم . . ومن يعلمهم لغتهم العربية . . ثم أخيرًا ممن يتزوجون . . خاصة إذا كن فتيات!

والأتراك يواجهون هناك هذه المشكلة أكثر من غيرهم لكثرة عددهم نسبيًا . والأب التركى حين تقترب ابنته من سن الشباب

لا يصبح له هم فى الدنيا سوى أن يبحث لها عن زوج مسلم مهما كانت جنسيته أو ظروفه، وكذلك بدأ بعض المصريين يفعلون هناك بعد أن طالت بهم الهجرة وكبرت بناتهم.

وليلة العيد فى هلسنكى ذكرتنى بصباح أول أحد أيام عيد الأضحى فى لندن الذى تصادف أن شهدته هناك أكثر من مرة، فلقد رغبت فى أن أصلى العيد فى المسجد الكبير بشارع «بارك رود» واتفقت مع صديق لى على أن يوقظنى بالتليفون فى موعد مناسب لكى نلتقى فيه.. لكن صديقى لم يتصل بى ونهضت فى الثامنة صباحًا فاكتأبت لفوات صلاة العيد وسماع تكبيراته التى أتفاءل بها واتصلت بصديقى معاتبًا وجاءنى صوته ضاحكًا: ولا يهمك تستطيع أن تصلى العيد فى مسجد بارك رود حتى الساعة الثانية بعد الظهر، فالمسجد لا يستطيع استيعاب أعداد الراغبين فى الصلاة ولهذا فهو يكرر صلاة العيد 5 أو 6 مرات بنفس مراسمها لكى يستطيع الجميع الصلاة وسعدت بذلك كثيراً..

وأسرعت بالخروج وركبت سيارة أجرة وأنا مبتهج وأنزلنى السائق الإنجليزى بالقرب من المسجد فأعطيته 5 جنيهات بقشيشًا فرح بها كثيراً وسألنى ما المناسبة؟ فأجبته: عيد الأضحى عند المسلمين.. فضحك مبتهجًا وسألنى: كم عيداً عندكم؟ فأجبته:

اثنان فقط . . عيد الفطر . . وعيد الأضحى . . فقال : يا خسارة تمنيت لو كانا عشرين عيداً . . وضحكنا معًا . . واقتربت من أسوار المسجد الخارجية فرأيت زحام يوم الحشر ، رغم أن الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهراً وشققت طريقى وسط الزحام فأعطانى أكثر من شخص قصاصة صغيرة ، نظرت فيها فوجدتها تحمل صيغة تكبيرات العيد بالحروف اللاتينية ، وجلست بين مصلين أوروبيين ومن جنوب إفريقيا والهند وباكستان وإفريقيا وكل أنحاء الأرض ، يمسك كل منهم هذه القصاصة ويردد منها التكبيرات . .

ولاحظ بعضهم أنى أرددها من الذاكرة . . فنظروا إلى «بإكبار» كأنى حجة الإسلام أبو حامد الغزالى . . أو سلطان العلماء العز بن عبد السلام! وانتهت الصلاة وخرجنا ، وعلى باب المسجد تو ادعنا وسعى كل منا فى الأرض وقد استزاد زاداً روحيّا جميلاً يجعل الإنسان أكثر رغبة فى أن يكف أذاه عن الآخرين . . وأكثر فهمًا لآلامهم . . وأكثر رغبة فى معاونتهم على أمورهم وأكثر رغبة فى خدمة الحياة والإضافة إليها . . وإعلاء مثلها العليا واحترام القيم الأخلاقية . . والالتزام بها لينال سعادة الأرض ونعيم الآخرة وهذه هى غاية الدين . . كل دين . . منذ نزلت الرسالة على إبراهيم عليه السلام ، ثم على أنبياء الله من بعده موسى وعيسى ومحمد وأنبياء لم نقصصهم عليك ، الله يعلمهم وأنتم لا تعلمون . .

ومـا أحلى الحـيـاة حـين يسـودها التـدين الصـحـيح بالأديان السماوية .

فـيسود العطف الإنسـانى بين البـشر وتسود الرحـمة بالإنسـان والحيوان والجماد . . ويتوارى الظلام والجهل والتعصب البغيض لأى ملة وأى دين . . ويتراجع الحمق والبغى والعدوان الذى لا يقره شرع ولا دين .

. . ويا ليلة العيد فى هلسنكى آنستينا . . ووجعتينا . . وقلَّبت علينا الذكريات والمباهج . . والأحزان !

أمـامـًا .. إلى الخـلف !

أخيراً غالبت ترددى وقررت قضاء إجازة نهاية الأسبوع فى الإسكندرية استجابة لرغبة صديقين لى يمضيان الصيف هناك . . منذ بدأ الصيف وهما يدعواننى للسفر إليهما فى إجازة قصيرة . . وأنا أقرر كل أسبوع أن أسافر ، ثم تدور لى عجلة العمل الهادرة فلا أجد الفرصة لتلبية النداء .

لم يكن الأمر يتطلب منِّى كل هذا العناء فى سنوات الشباب لكى أسافر إلى الثغر أو إلى أى مكان . . كنت أقرر السفر فجأة وأقدم عليه بعد ساعات وأحيانًا بعد دقائق . . وفى بعض الأحيان بلا حقيبة ملابس!

فإن لم أجد مقعداً فى القطار ، أمضيت ساعات السفر فى البوفيه أو واقفًا بين المقاعد بلا كلل . . الآن ثقلت الحركة . . وتراجعت الهمة وأصبح السفر فى إجازة قصيرة مشروعًا «قوميّا» أستعد له قبلها بفترة طويلة . . وأسهر من أجله عدة ليال لأنجز ما سيتعطل من أعمال بسبب الإجازة الخاطفة .

بحثت عن تذكرة فى القطار فلم أجد، لكنى وجدت مقعداً مناسبًا فى سيارة الأتوبيس الفاخر الجديد، الذى يربط العاصمة بالثغر . . جلست فى مقعدى مبتهجًا بإحساس الإجازة . . «والمغامرة» . . وبقدرتى على انتزاع نفسى . . وتحرَّك الأتوبيس فتذكرت فجأة أننى لم أركب قطاراً فى مصر منذ 8 سنوات . . ولم أركب أتوبيس السفر منذ 16 عامًا!

إلى هذا الحد وصل بى التخشب وراء المكاتب فى السنوات الأخيرة . . ففى ذمة الله زهرة العمر التى ذبلت فى الغرف الضيقة . . والانحناء الطويل على المكاتب!

يقول المؤرخ بلوتارك : إن القائد الرومانى يوليوس قيصر كان يستعين على علاج اعتلال صحته بالطعام البسيط . . والصبر على المكاره . . والنوم فى الهواء الطلق! وأنا ألتزم بشيئين من هذه الوصفة الطبية. هما : الطعام البسيط . . والصبر على المكاره . . فهل يعالج الهواء الطلق ما أصاب الصحة من اعتلال وما ترسب فى النفس من هموم الحياة؟

الأتوبيس يتقدم فى الطريق . . وأفكارى تتراجع إلى الوراء . . كانت الإسكندرية هى حلمنا القديم فى سن الطفولة . . نتحدث عن عجائبها بانبهار، ونطرب لسماع لهجة أهلها المميزة، ونؤكد عن «علم أكيد» أن إفطارهم من السمك المشوى . . ونزورها من مدينتنا الصغيرة ـ القريبة نسبيًا منها ـ فى الأعياد والمناسبات ونرجع منها

سكرى برائحة اليود التى تنبعث من شواطئها . . ونظل نحكى عن رحلتنا إليها، التى لم تستغرق سوى بياض النهار، أيامًا طوالاً . . لأسماء أحيائها الأجنبية فى آذاننا رنين محبوب . . كامب شيزار . . جليم . . سان ستيفانو . . فيكتوريا . . لا نأبه لما تغير منها أو ترجم إلى العربية فى محطات الترام، ونتمسك بالأسماء القديمة، وقد مضت سنوات طويلة قبل أن أعرف معانى بعضها ككامب شيزار مثلاً التى اكتسبت اسمها من يوليوس قيصر حين نزل إلى مصر وضرب خيامه فى ذلك المكان فسمى معسكر قيصر أو كامبو تشيزارى!

رفاق الصبا فرقت بينى وبينهم الدراسة الجامعية، فاتجهوا للإسكندرية وواصلوا تعليمهم فيها . . واتجهت وحدى إلى القاهرة لألتحق بجامعتها . . فتواصلت بيننا «رحلات الصداقة» - كما كنَّا نسميها - يزوروننى . . وأزورهم فى الشتاء أكثر مما أزورهم فى الصيف . . وأنتشى بكل لحظة أعيشها معهم فيها . . فكيف ثقلت حركتنا جميعًا وأصبحت السنوات تمضى قبل أن يستجمع أحدنا إرادته ليقوم برحلة جديدة من هذه الرحلات!

فى إحدى رحلاتى القديمة . . طلبت من صديقى المخرج المسرحى حسين جمعة، وكان يشرف على النشاط المسرحى بالمدينة فى ذلك الوقت أن يعرفنى بصديقه الفنان الكبير سيف وانلى، فاصطحبنى إلى مرسمه . . ودخلت عليه فوجدته جالسًا أمام لوحة

جديدة يرسمها فى دأب غريب، وأحببت فيه تواضعه وروح الفنان المحب للحياة وللآخرين فيه.

وتحولت منبهرًا بين لوحاته الجميلة، ثم توقفت مذهولاً أمام لوحة له ليس فيها سوى مساحة من اللون الأرجوانى، يقسمها من المنتصف خط أسود خفيف، فتأملتها طويلاً دون أن أفهمها وسألته بعد تردد قصير عنها فقال ببساطة: إنها . . الغروب! ضربت جبهتى بيدى قائلاً: يا إلهى. . إنه فعلاً الغروب حين يغطى لون الشفق الأفق. . وما هذا الخط الأسود سوى الفاصل بين الأرض والسماء. . وتحسرت على ضعف تذوقى الفنى. . فطيب خاطرى ودعانى إلى فنجان من القهوة وشربت القهوة واستمتعت بالحديث معه، لكنى لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل مرة أخرى عن سر هذه «الزخرفة» العجيبة على جدران شقته والتى لم أر لها مثيلاً من قبل وسألته محاذرًا: كيف صنعتها يا أستاذ؟ فأجابنى بنفس البساطة بأنه لم «يصنع» شيئًا. . وإنما أراد أن يعيد طلاء شقته واستدعى النّقّاش وطلب منه كحت الطلاء القديم حتى مستوى الطوب الأحمر استعدادًا للطلاء الجديد، وقام النّقّاش بعمله وكحت الجدران فظهرت تكوينات غريبة فى الطوب الأحمر للجدران فما أن رآها حتى شكر النّقّاشَ وأعطاه أجره.

وقال له إنه لا يحتاج إلى طلاء جديد. . وانصرف النّقّاش متعجبًا من هذا الفنان الذى أنهى عمله قبل أن يبدأ وسيعيش فى شقة بلا طلاء!

الأتوبيس يواصل تقدمه فى الطريق . . وأفكارى تواصل تراجعها إلى الوراء .

كنت أزور فى ذلك الوقت أيضًا صديقى الكاتب المسرحى الموهوب «محمود دياب»، الذى كان مديرًا لقصر ثقافة الحرية بالإسكندرية فى هذه الفترة، وانتقل بينه وبين خصمه المشاغب حسين جمعة، وأتحرج من أن ينال أحدهما من الآخر أمامى؛ لأن كلاً منهما صديق عزيز لى وموهوب فى مجاله . . ولا أرى سببًا لهذه العداوة الفنية الغريبة التى اشتعلت بينهما فجأة، فأطلق كل منهما فى الآخر لسانه، وصار له أنصار ومؤيدون من أدباء المدينة ومثقفيها . . وكنت أسميهما «جرير والفرزدق» إشارة إلى العداء المستحكم بينهما .

وقد بدأ النزاع بينهما بخلاف مألوف بين المخرج والمؤلف عند إخراج حسين جمعة لمسرحية محمود دياب الجميلة «الزوبعة»، لكنه تطور واستفحل بعد ذلك، كما بدأ الخلاف بين جرير والفرزدق بانحياز الأخير إلى صف شاعر مغمور اسمه البعيث كان يهجو جريرا، فاغتاظ جرير من الفرزدق وهجاه فرد عليه هجاءه واحتدم الهجاء بينهما 10 سنوات كاملة، ومن العجيب أنه أشعل موهبة كل منهما فى شعر الهجاء ونمى فيه قوة المباهاة والمجادلة، فكانت بينهما «النقائض» وقد سميت كذلك؛ لأن أحدهما كان يقول القصيدة فينقضها عليه الآخر من نفس الوزن والقافية، إلى أن تعب الفرزدق

وكف عن الهجاء وتنسك حتى مات . . فلم تمض ستة شهور حتى مات وراءه جرير!

ولقد مات محمود دياب - رحمه الله - فى منتصف الطريق ممرورًا بالمرض وإحساس الاضطهاد والتجاهل قبل أن يتم عمله، ولو طال به العمر لأثرى المسرح العربى بعدد أكبر من أجمل المسرحيات . . لكن ما أسرع ما تجرى أمور الحياة، كما قال تشيكوف على لسان أحد أبطال قصصه . . وما أقل ما نتعلم من دروسها . . للأسف .

تذكرت، وأنا جالس فى مقعدى أرقب باهتمام علامات الطريق التى توضح المسافة المتبقية منه، ما كتبه الدكتور زكى مبارك فى كتابه الممتع «الحديث ذو شجون» منتقدًا انفصال بعض الأساتذة الذين يتولون تعليم النشء عن الحياة الاجتماعية فى بلادهم : افتخر الشيخ خليل وهو من أئمة المالكية فى مصر فى بعض كتبه بأنه لم ير النيل فى حياته، وإنما قضى عمره جالسًا فوق حصير الأزهر الشريف!

فقفزت إلى خاطرى على الفور الصورة المتناقضة لذلك فيما قرأته فى مذكرات الأديب الأمريكى «أرسكين كالدويل»، الذى أمضى معظم سنوات شبابه ينتقل من ولاية إلى أخرى بسيارة الأتوبيس، ويقضى داخل الأتوبيس المتحرك من الساعات أكثر مما يقضيه أحيانًا فوق الأرض الثابتة . . يلاحظ ما حوله ويبحث عن أفكار وشخصيات جديدة لقصصه ورواياته، وكلما نضبت أفكاره

حمل حقيبته والآلة الكاتبة القديمة وركب الأتوبيس فى رحلة طويلة إلى مكان جديد، فعاش معظم سنوات عمره متحركًا . . وليس جالسًا متخشب الظهر والأطراف إلى مكتبه، كما تمضى معظم أيامى! وبنفس الطريقة أو أكثر منها عاش الروائى البريطانى «جراهام جرين» معظم سنوات حياته، فقد عاش معظم عمره خارج وطنه يتنقل من مكان إلى مكان؛ بحثًا عن تجربة فريدة يصوغ منها شخصيات رواياته وأفكارهم وكتب عن نفسه فى أخريات أيامه: مازال مزاج الهروب يلازمنى!

وكتب أيضًا: النجاح أخطر من الفشل؛ لأنه يحملك مسئولية أدبية أكبر للحفاظ عليه وعدم التنازل عنه.

ومثله أيضًا فى «مزاج الهروب» وحب التنقل، كان الروائى الأمريكى «أرنست هيمنجواى»، الذى كان يمتلك طائرة خاصة يطير بها إلى أحراش إفريقيا ليصيد الوحوش. . أو يذهب إلى إسبانيا ليشاهد مصارعة الثيران. . ومن خلال مشاركته فى الحرب الأهلية الإسبانية كتب أجمل رواياته «لمن تدق الأجراس»!

ورغم كل هذه الإثارة والمتعة، فقد ضاق بكل شىء فى حياته فجأة ووجه فوهة بندقيته إلى رأسه، ثم أطلقها!

وقد لا يدهشنى ذلك. . بقدر ما يدهشنى كيف استطاع أديبنا العبقرى نجيب محفوظ أن يبدع رواياته، ويصور كل هذه

الشخصيات الفريدة والتجارب الإنسانية المختلفة . . وهو يكره السفر والتنقل ولم يسافر خارج بلاده سوى إلى اليمن أو إلى يوجوسلافيا ومؤخراً منذ بضع سنوات فقط إلى إنجلترا فى رحلة علاج، ولا يغادر القاهرة إلا إلى الإسكندرية التى عشقها واستلهمها عدداً من أجمل قصصه ورواياته .

اقترب الأتوبيس من مشارف الإسكندرية . . فتذكرت فجأة رحلة قديمة إلى نفس المدينة مع مجموعة من الأصدقاء الكبار، كان من بينهم الفنان العظيم «رخا» رحمه الله، فقد تمشينا على الكورنيش فى الأصيل ووقف الأستاذ رخا يستروح نسيم البحر بعمق ويملأ صدره بهوائه باستمتاع عجيب، ثم قال لى : شام اليود . . يا عبد الوهاب؟

فلم أملك نفسى من الضحك ورددت عليه قائلاً : يا أستاذ رخا . . إنها رائحة المجارى!

فلم يتنازل عن استمتاعه وقال لنا بإصرار أشد : وَلَوْ . . حتى رائحة المجارى هنا ألطف منها فى القاهرة؟

وقد كان على حق فى ذلك . . ليس فى حكاية المجارى . . وإنما فى أن استمتاع الإنسان بالأشياء يتحقق داخله هو، وليس بتأثير الظروف المحيطة به . . لهذا فقد تسعد فى مكان فقير بسيط . . وتكتئب فى مكان فاخر جميل، ولا عجب فى ذلك ؛ لأن السعادة

استعداد نفسي وإحساس داخلي ينبعث من داخلك أنت ولا تتلقاه من الخارج . . وليس للعوامل الخارجية فيه إلا أقل الأثر .

ولهذا كنا نستمتع برحلاتنا القديمة البسيطة ؛ لأننا كنا أكثر قدرة على السعادة . . وأكثر طلبًا لها . . وأكثر تمسكًا بها . . ولم نكن لندرك وقتها أنه سوف يجيء علينا بعد ذلك زمان . . نلتفت فيه إلى الوراء بأفكارنا . . بينما تواصل أجسادنا تحركها إلى الأمام . . ونتساءل بحنين وأسى : أين أيام الصفا أين؟!

أحبَّاء الحيــــاة !

هل تحب الحياة؟ أنا أحبها . . فهل تحبها أنت؟ سوف أعفيك من التفكير فى إجابة السؤال . . وسأجيب نيابة عنك فأقول لك واثقًا إنك تحب الحياة، بل تحبها جدًا ولا تريد أن تفتقدها رغم ما قد تشكو منه أحيانًا من بعض متاعبها أو آلامها . . أو من بعض صور الشر والظلم وتفاوت الحظوظ فيها . . فالحق أننا قد نشكو أحيانًا من الحياة . .

لكننا نشكو منها كما نشكو ممن نحب ونريد له أن يتخلص من بعض عيوبه وسلبياته الصغيرة ليكون أكثر كمالاً . . وروعة . . وجمالاً، ولا نشكو منها؛ لأننا نكرهها أو نريد أن نتخلص منها، وهذا هو الموقف النفسى السليم من الحياة . . أن تحبها وتعمل على تخليصها من شرورها وسلبياتها، ونشكو مما لا نستطيع أن نغيره إلى الأفضل فيها ونتمسك دائمًا بالأمل فى أن ننجح أو تنجح الأجيال التالية لنا فى تغييره.

فالإيمان بالحياة يدفع الإنسان أن يسلك فيها سلوك المحب الراغب فى كمالها . . والمدافع عنها ضد أعدائها وضد كل صور

القبح والشر والظلم الإنسانى فيها، ويهيئ للإنسان أفضل الظروف النفسية الممكنة لأن يعيش حياته فيها سعيداً. . ويحقق أهدافه. . فالحب فى معناه البسيط هو الاهتمام ومَنْ يحب شيئًا يهتم به وبأمره ويسعَ لأن يخلصه من سلبياته. . ويساعده على التقدم والتطور إلى الأفضل «والحياة قيمة سحرية كبرى» كما يقول لنا الأديب الألمانى العظيم «توماس مان»، وفى طبيعة الإنسان السوى ما يجعله يتشبث بها، ويتعلق بأهدابها حتى اللحظة الأخيرة. . ويحاول دائمًا أن يدفعها للتطور فى اتجاه مثلها الأعلى.

والمثل الأعلى للحياة هو الذى تتراجع فيه الآلام والمعاناة، وتتحقق السعادة والعدل. . وينال فيه كل إنسان ما يتمناه لنفسه وللآخرين.

لكن هذا «الحلم الكبير» لا يحققه أبدًا، بل ولا يسعى إلى تحقيقه إلا أحبَّاء الحياة الذين يحاولون بكل جهدهم أن يخففوا من آلامها ويزيدوا من مساحة السعادة والبهجة والعدل فيها.

وأشهر أحبَّاء الحياة والإنسان على مر التاريخ هم الأنبياء والرسل، الذين جاءوا إلى البشر برسالات السماء؛ لإصلاح شأنهم وإرشاد الإنسان إلى ما يحقق له العدل والرحمة والتسامح والإخاء الإنسانى. . ويرشحه إذا التزم بهذه القيم السامية فى حياته الشخصية للسعادة الكبرى فى العالم الآخر.

ومن بعد الأنبياء والرسل، يأتى المصلحون الذين أثقل ضمائرهم ما رأوه من انتشار صور الظلم والشر فى الحياة، فحاولوا إصلاح مجتمعاتهم. . وإصلاح الإنسان ودعوته إلى المثل العليا والقيم الأخلاقية والدينية الصحيحة.

ومن بعد هؤلاء. . وهؤلاء تأتى أنت شخصيًا وكل إنسان يتعامل مع الحياة بجدية وأمانة وشرف. . فيؤدى واجبه فيها بإخلاص ويرضى ضميره فى أداء عمله مهما كان بسيطًا بأمانة ويتعامل مع نفسه ومع الآخرين بشرف فى حياته الخاصة والعامة. . فيضيف رقعة جديدة إلى مساحة النقاء والاستقامة والمثل العليا والعدل فى الحياة، ويسحب رقعة مماثلة من مساحة الشر والاستغلال والإيذاء والظلم الإنسانى فيها، وكلما ازدادت مساحة هذه الرقعة المضيئة بالخير والقيم والمثل العليا فى الحياة، تراجعت الرقعة الأخرى المظلمة. . وانحصر سكانها داخلها وضاقوا بوحدتهم فيها وتلمسوا سبل الخروج من سجنها.

لقد بنى الكاتب الروسى العظيم «أنطوان تشيكوف» فى أخريات حياته بيتًا صغيراً بسيطًا لنفسه، لكنه اهتم بتنسيقه وتجميله وزراعة الزهور فى كل مكان فيه، فبدا أكثر جمالاً وقيمة من قيمته الحقيقية وزاره ناقد كبير وأبدى إعجابه بالبيت، فتفكر تشيكوف قليلاً فيما

قاله الناقد، ثم قال له:

.. لو أن كل إنسان اهتم بتجميل رقعة الأرض الصغيرة التى يعيش فيها لأصبح كوكبنا فتنة للأنظار!

وهذا صحيح تمامًا، فكل إنسان يستطيع أن يسهم فى تجميل الحياة ماديّا ومعنويّا بأبسط الأعمال.. ويستطيع ولو «بإماطة الأذى عن الطريق» أن يسهم فى تجميلها، كما يستطيع أيضًا، بجهده البسيط فى تحرى العدل فى حياته الخاصة.. وتخفيف آلام الآخرين، أن يسهم إسهامًا أكبر فى تجميل الحياة.. وجعل رحلة الإنسان فيها أكثر سعادة وأقل عناءً.

وهؤلاء الذين يجمّلون الحياة ماديّا ومعنويّا هم من عناهم التنزيل الحكيم فى الآية الكريمة من سورة الكهف التى تقول:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾* صدق الله العظيم؛ أى لنعرف أيهم يحسن العمل فى الدنيا فيستحق نعمة الحياة كما يستحق نعيم الآخرة.. وأيهم لا يستحق هذه ولا تلك.

والذين يستحقون نعمة الحياة ويرشحون أنفسهم لنعيم الآخرة هم هؤلاء الذين يؤمنون بالحياة ويعرفون أنها «قيمة سحرية كبرى» عليهم أن يعرفوا لها قدرها، ويسهموا بجهدهم الإنسانى البسيط فى ترقيتها والدفاع عنها ضد كل صور الشر، وليس هناك من سبيل

* الكهف: آية 8.

لأداء هذه الرسالة الكبرى سوى أن يؤدى كل إنسان واجبه الإنسانى فى الحياة تجاه عمله وأسرته ومجتمعه بأمانة وإخلاص وشرف . .

فالأديب الإيرلندى العظيم «برنارد شو» يقول لنا : إن غضب الله سوف يحل بالذين لن يتركوا الحياة أفضل مما وجدوها عليه حين جاءوا إليها ، وأن مشعل الحياة متوهج دائمًا وعلينا أن نسلمه للأجيال القادمة أكثر توهجًا مما وجدناه حين جئنا إلى الحياة .

ومن بين كل صور الإيمان بالحياة والتمسك بأداء الواجب الإنسانى فيها حتى اللحظة الأخيرة ، أقف دائمًا مذهولاً أمام قصة أعظم عالم فى التاريخ الإسلامى وهو البيرونى الذى عاش بين عامى 973 و 1048 وقال عنه ياقوت صاحب معجم الأدباء إنه «لم تكن يده لتفارق القلمَ ولا عينُه النظرَ ولا قلبُه الفكرَ إلا يومى النيروز والمهرجان ـ عيدان فارسيان ـ كل سنة» .

وقد روى عنه المؤرخون أن القاضى كثير بن يعقوب قد زاره وهو فى النزع الأخير ، ففوجئ بالبيرونى يسأله وهو يعانى من حشرجات الموت عن مسألة فى الفقه مازالت تحيره . . فتردد القاضى فى إجابته إشفاقًا عليه وقال له : أفى هذه الحالة؟ فأجاب البيرونى : نعم فلأن أموت وأنا عالم بهذه المسألة أفضل لى من أن أموت وأنا جاهل بها !

وأجابه القاضى إلى ما سأله وتحاور معه فيه ، ثم غادره ، فلم يكد يبتعد عن بيته حتى سمع نواح أهله عليه !

وهكذا فعل كل من أحبوا الحياة وتمسكوا بأن يؤدوا دورهم فيها حتى الرمق الأخير . . فالرسام الإيطالى تيسيان (1477 – 1576)، الذى تزين لوحته المتاحف العالمية ظل يتعلم، ويجدد فى أسلوبه للرسم، ويرسم لوحاته الرائعة حتى آخر لحظة فى عمره، وقال وهو فى التاسعة والتسعين من العمر إنه لا يزال أمامه الكثير من آفاق الفن التى لم يصل إليها بعد ويحلم بالوصول إليها!

ورسام عصر النهضة الأوروبية العظيم «مايكل أنجلو» رفع رأسه إلى سقف كنيسة سيستينا وهو يقترب من التسعين وراح يتأمل لوحته الرائعة «الخليقة» أو خلق آدم، التى رسمها فى سنوات، وقال والأسى يملأ قلبه : لو كان لدى متسع من العمر لما ترددت لحظة فى أن أبذله فى تحسين هذه اللوحة وزيادتها إتقانًا وجمالاً .

وأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد (1872 – 1963)، مترجم فلسفة أرسطو فى عشرينات هذا القرن، وأحد رواد حركة التنوير فى مصر، ظل يرأس جلسات المجمع اللغوى، ويتجادل مع أعضائه حول الاعتراف ببعض الكلمات المستحدثة أو رفضها وإنكارها وهو فى التسعين من عمره، ولم يتخلف عن حضور جلسات المجمع إلا حين أقعده المرض تمامًا عن الحركة ومات عن 91 عامًا فى 1963 .

والموسيقار الإيطالى العظيم فردى (1813 - 1901)، ظل يسعد الدنيا والآخرين بموسيقاه حتى قارب التسعين، ولم يتوقف لحظة عن الإبداع والتفكير والإضافة للحياة.

وكذلك فعل الأديب الفرنسى فونتونيل، الذى مات عن مائة سنة كاملة وظل حتى اليوم الأخير من عمره يكتب ويفكر ويتأمل، ويجادل الآخرين فى أفكارهم ويدافع عن أفكاره، التى يؤمن بها وكذلك فعل أيضًا جورج برنارد شو العظيم (1856 - 1950)، الذى ظل يكتب ويؤلِّف ويتابع تجارب مسرحياته بنفسه ويختلف مع مخرجيها . . ويهتم بشئون الحياة والعالم ويعلن رأيه فى أحداثه مؤيدًا أو مستنكرًا ومهاجمًا، ومات وهو فى الرابعة والتسعين وكان يأمل أن يعيش حتى المائة، ويؤمن بأن العمر الطبيعى للإنسان ينبغى ألاَّ يقل عن 300 سنة، لكى يتسع لتحقيق كل أهدافه فى الحياة، ويرى أن الجنس البشرى قادر على أن يبلغ ذلك بالمحاولة والاهتمام بالصحة العامة تدريجيّا !

أما العقاد العملاق؛ الذى ظل يكتب ويؤلف ويدافع عن آرائه ويختلف مع معارضيه ويهاجم ويفند حججهم حتى الأيام الأخيرة من عمره، فقد كان يؤمن بأن العمر الطبيعى للإنسان ينبغى أن يساوى 6 أمثال الفترة التى يستغرقها نضجه، فإن كان نضج الإنسان يستغرق نحو 20 سنة، فالمفروض أن يعيش 120 سنة، فإذا لم يبلغها، فإن ذلك قد يرجع إلى مخالفته لسنن الطبيعة فى الغذاء والسكن إلى جانب الإسراف فى إنفاق قواه الجسدية والعقلية.

وأعظم كتَّاب إيرلندا بعد شو، واسمه شون أوفالين مات منذ سنوات عن تسعين عامًا وشهرين . . وظل حتى اليوم الأخير من

عمره يكتب ويؤلف ويهتم بنقد النقاد لقصصه القصيرة ويجادلهم فيه بحماسة شاب فى العشرين.

أما رجل الصناعة الأمريكى هنرى فورد (1863-1947)، فقد ظل من سن الـ20 حتى بلغ الـ82 يعمل 14 ساعة على الأقل يوميّا، وبنى خلال رحلة عمره إمبراطورية صناعة السيارات التى تحمل اسمه وحقق ثروة خرافية، وسأله أحد الصحفيين وهو فى الـ80 من عمره: لماذا تعمل 14 ساعة يوميّا الآن بعد أن حققت كل هذه الثروة.. هل تريد مزيداً من المال؟ فأجابه: لا.. لكن «عجلتى» قد دارت بأقصى قوتها منذ سن الـ20 وعجزت عن إيقافها الآن.. لأن وقوفها لن يعنى لى إلا الموت! وظلت عجلته دائرة فعلاً بعد الـ80 بعامين آخرين، وظل يرأس مجلس إدارة شركاته الضخمة بنفسه إلى أن اقتنع أخيراً بحاجته إلى شىء من الراحة فخلفه فى منصب المدير حفيده.. وظل هو يراقب العمل عن قرب ويخطط.. ويتدخل فى الوقت المناسب حتى مات فى الـ84 من عمره.

هؤلاء جميعًا من أحباء الحياة، وقد أحبوها.. فاهتموا بأمرها وحرصوا على أن يضيفوا إليها وأن يسلموا مشعلها المتوهج لمن جاء بعدهم أكثر توهجًا وبريقًا.

وبأمثالهم ترتقى الحياة وليس بهؤلاء الكسالى المهملين والمتقاعسين.. والمصابين بفشل الروح وعجز الإرادة، الذين يتفننون فى التهرب من العمل والركون إلى الراحة.. ويفضلون أن يعيشوا عالةً على مجتمعاتهم الصغيرة والكبيرة ويستحلُّون سرقة

عرق الآخرين الكادحين، الذين يعملون بالأصالة عن أنفسهم، وبالنيابة عن أمثال هؤلاء اللصوص والعجزة من كارهى الحياة، الذين تبادلهم الحياة كراهية بكراهية . . والذين يتركونها دائمًا أسوأ مما وجدوها حين رزقت بمجيئهم إليها، والذين يطفئون مشعلها المتوهج . . بتقاعسهم عن أداء واجبهم الإنسانى فى أعمالهم وتجاه الحياة بصفة عامة وأيضًا بسوداويتهم وأحقادهم على من تخلصوا من قيود العجز والكسل، التى استسلموا هم لها . . واستناموا لأحضانها فزادوا من رقعة القبح والشر والظلم الإنسانى فى الحياة بدلاً من أن يقللوا منها.

فماذا تعتبر نفسك يا صديقى بعد كل هذا؟ من أحباء الحياة الذين يجملونها ويرتقون بها ويخففون من آلامها، أم من كارهيها وأعدائها . . وأعداء كل القيم الجميلة والنبيلة فيها؟

إنه سؤال لا يحتاج إلى إجابة . . فقد قلت لك من البداية، إنك تحب الحياة . . وكذلك نفعل جميعًا، لكن المهم هو أن نعرف معًا كيف نعبِّر عن حبنا لها بالوسيلة الصحيحة . . وكيف نحافظ دائمًا على مشعلها المتوهج منذ فجر الإنسانية، وكيف نزيده بريقًا وتوهجًا ولمعانًا ؟

اخرج..فى الجو العاصف !

كنت أعيش وحيداً فى مسكنى فى ذلك الوقت . . وقد طالت وحدتى منذ غادرت بيت الأسرة فى مدينة صغيرة تبعد عن القاهرة نحو 200 كيلو متر ، وأنا فى الـ17 من عمرى ، وجئت إلى القاهرة لألتحق بجامعتها إلى أن تخرجت وعملت وتجاوزت الـ30 من عمرى ، وأنا أعيش وحيداً فى مسكنى الخالى ، وقد أصبحت وحيداً مزمنًا واكتسبت عادات الوحدة وكرهتها من أعماقى . . ثم جاء شتاء قارس لم تشهد بلادنا مثله منذ سنوات وأمطرت السماء لمدة 3 أيام متصلة ، فغرقت الشوارع . . واحتجب الناس فى البيوت يحتمون بدفئها ويستعينون على الوقت بالسمر العائلى والتليفزيون ومشروبات الشتاء الساخنة . . لكن كيف يستعين عليه شاب وحيد مثلى فى مسكن خال من البشر ، والقراءة وحدها لا تغنينى عن حاجتى للإيناس والصحبة .

لقد جربت أن أعتصم بالبيت بعد عودتى من العمل فى أول أيام الموجة الباردة ، فأمضيت المساء ضيق الصدر مكتئبًا . . أقرأ قليلاً

وأشرد كثيرًا، وأحاول اصطياد النوم فأفشل، إلى أن بزغ الفجر وأنا مازلت مستيقظًا . .

وفي اليوم التالى عدت لبيتى بعد موعد العمل وكررت المحاولة فما أن بلغت الساعة الـ10 مساء حتى كان الضيق قد تولانى فقررت أن أخرج مهما كان الجو باردًا وممطرًا وأن أذهب إلى مقهى وسط المدينة الذى كنت أمضى فيه سهراتى كل ليلة حتى ولو لم أجد فيه رفيقًا لسهرتى سوى جارسون المقهى، ونهضت بحماسة لارتداء ملابسى وارتديت معطفًا ثقيلاً وكوفية صوفية وغادرت شقتى . . وعند باب العمارة رأيت البواب يرقب المطر من خلف زجاج الباب الخارجي وهو يرتدى البالطو والكوفية، فما إن رآنى نازلاً حتى التفت إلىَّ مندهشًا، ثم قال لى لائمًا: إلى أين تذهب فى هذا البرد والمطر؟

ولا أذكر بماذا أجبته وقتها . . لكنى أذكر أنى خرجت إلى الشارع محتميًا بمظلة، ثم ركبت سيارتى الصغيرة القديمة التى كنت أملكها وقتها واستغرقت وقتًا طويلاً حتى نجحت فى إدارة محركها الذى أثرت فيه الأمطار والبرد، ثم قدتها إلى مقهى وسط المدينة ودخلته فلم أجد فيه من أصدقاء السهرة اليومية أحدًا، بل لم أجد فيه من رواده المعتادين سوى شيخ فى الـ70 من عمره، كنت أراه فى المقهى معظم الليالى ولا أعرفه ولم أتحدث إليه من قبل . . لكن الوحدة فى

ليلة شتائية باردة هى خير بطاقة تعارف بين البشر . . فما إن دخلت المقهى الخالى حتى تهلل لرؤيتى ونهض مرحبًا بى كأنى صديق حميم له . . وكنت أتلهف إلى من أتحدث إليه، فأقبلت عليه محييًا مع أنها كانت المرة الأولى التى نتحادث فيها وجلست إلى جواره . .

وبدأ الحديث بالتعليق على الجو البارد العاصف . . ثم سألنى عن عملى وحياتى وسألته عن ظروفه وحياته؟ وعرفت منه أنه موظف بالمعاش وأن زوجته قد رحلت عنه منذ 6 سنوات وتزوج الأبناء واستقلوا بحياتهم، وخلا عليه مسكنه فعاش فيه وحيداً يزوره الأبناء من حين لآخر أو يزورهم . . لكن الشتاء يحجب الجميع ويسجنهم فى بيوتهم فيضيق بوحدته فى الليل ويأتى إلى هذا المقهى القريب من بيته، حيث يجلس وحيداً بعض الوقت ويتسلى برؤية رواده . . والاستماع إلى ثرثرتهم ويعود لبيته آخر الليل، ثم حجبت موجة البرد الأخيرة الرواد ليلة أمس . . والليلة حتى كاد الجارسون يغلق المقهى وينصرف إلى بيته لولا أن توسل إليه هو أن يبقيه مفتوحًا عسى أن يأتى أحد.

وقد صدق ظنه وجئت أنا هذه الليلة، والتفت إلى الجارسون وكنت أعرفه منذ فترة طويلة . . «وأنبته» طويلاً على تفكيره «الانهزامى» فى إغلاق المقهى . . وحذرته من الاستسلام له مرة أخرى، قائلاً له إن هناك فى الحياة من تشتد عليهم معاناة الوحدة أكثر من معاناتهم للبرد، وأن مقهاه هو «مصحتهم النفسية»، التى

تحميهم من أضرار الوحدة فى مثل هذه الليالى الموحشة، وكنت أمزح معه بالطبع. . لكنى اكتشفت بعد سنين طويلة أننى كنت أمزح فعلاً، لكنى لا أقول إلاَّ جداّ من حيث لا أدرى، بل أننى حين غادرت مسكنى الخالى وذهبت إلى المقهى فى تلك الليلة الممطرة كنت أنفذ بغير وعى أحدث روشتة يقدمها أطباء النفس الآن فى أوروبا وأمريكا والبلاد الباردة لكبار السن ومن يعانون الوحدة فى حياتهم كباراً وصغاراً.

فالشتاء فى هذه الدول قاس والغيوم تحجب الشمس لأيام طويلة وأحيانًا لأسابيع. . فيظل الكون لون رمادى كئيب، وفى مثل هذا الجو يزهد كثيرون فى الخروج إلى الشوارع لأيام متتالية فيتسلل الاكتئاب تدريجيّا إلى نفوسهم، ثم تتراكم سحبه داخلهم. . فتؤدى بهم إلى اكتئاب من نوع خاص يسمونه «ظاهرة الكوخ» أو اكتئاب الكوخ وهى حالة خاصة من الاكتئاب يحسها الإنسان إذا طال سجنه داخل مسكنه أو «كوخه» بسبب رداءة الجو فى الخارج وتجهم السماء وانهمار المطر.

ولهذا فإن الأطباء النفسيين ينصحون كبار السن ومن يعيشون وحدهم فى مساكنهم ألاَّ يسجنوا أنفسهم فى بيوتهم خلال شهور الشتاء الكابية ويحثونهم على أن يخرجوا إلى الحياة مرة واحدة على الأقل كل يوم مهما كان الجو بارداً وعاصفًا. . وبأن يذهبوا إلى المقهى ولو لنصف ساعة فى الصباح أو الظهر أو المساء؛ حتى لو

جلسوا فيه صامتين يرقبون المطر والمارة والسيارات العابرة . . وحتى لو لم يتحدثوا إلى أحد سوى جارسون المقهى حين يقولون له : واحد قهوة من فضلك .

فالخروج من سجن الكوخ ولو للحظات يجدد نشاطهم وحيويتهم ويجدد ارتباطهم بالحياة . . والمشى إلى المقهى أو إلى مكان لبعض الوقت يحرك أعضاءهم . . ويحرّك ـ وهو الأهم ـ روحهم فلا تستسلم للخمول ثم الاكتئاب ، الذى قد يؤدى إلى الموت ؛ فالسكون موت . . والحركة حياة ، كما قال أحد الشعراء .

والإنسان الذى قد يشكو كثيراً من الناس ومن تدهور أخلاقهم ومضايقاتهم لا يتحمل الحياة وحده طويلاً . . ولا يعرف أن هذه المضايقات نفسها هى أحد أسباب تَحَرُّك روحه بالانفعال أو الاستياء أو الرفض ، وأن هذه الانفعالات حتى ولو كانت سلبية ، إلا أنها أرحم كثيراً من جمود الروح بلا أى انفعال ، فأسوأ حالات الإنسان النفسية هى ألاَّ يفرح لشىء ولا يحزن لشىء ولا يعجب لشىء ولا يستاء من شىء وتأثير الجو الكآبى الغائم على الحالة النفسية للإنسان معروف منذ القدم ، لكن العلم لم يتوصل إلى تفسيره إلا منذ فترة قصيرة على أيدى أطباء النفس وعلمائه .

فالشتاء هو فصل الأحزان والشجون وميل النفس للاكتئاب وشهوره هى موسم العمل وزحام العيادات النفسية فى أوروبا

وأمريكا، حيث تطول قوائم الانتظار فيها . . والتشخيص فى معظم الأحيان: اكتئاب الكوخ أو اكتئاب الشتاء.

وقد لاحظت منذ سنوات حين بدأت أتردد على باريس مرتين كل سنة؛ الأولى فى بداية الصيف والأخرى فى بداية الشتاء . . أننى أجد الفرنسيين فى زيارة الصيف يتألقون بالمرح والصخب وحب الحياة وأجدهم فى زيارة الشتاء متجهمين وأقل مرحًا وصخبًا.

وقد اعتدت أن أمضى فترة الصباح فى مقهى صغير مجاور للشقة التى أمضى فيها إجازاتى وهو مقهى تملكه سيدتان عجوزتان، وتديرانه بنشاط ومرح فلاحظت أنهما تتفجران بالحيوية والمرح وتستقبلاننى بابتسامة عريضة كل يوم والسؤال عن الصحة فى زيارة الصيف، ولاحظت أنهما تستقبلاننى فى زيارة الشتاء بتحفظ وأنهما لا تداعبان الروّاد ولا تتبادلان معهم النكات والضحك كما يحدث فى الصيف، ورويت ذلك لصديق مقيم فى باريس منذ سنوات طويلة ففسره لى بأنه هكذا الحال غالبًا فى الشتاء!

وأكد لى طبيب مصرى مقيم فى فنلندا - وهى إحدى دول شمال أوروبا الباردة - أن معظم حالات الانتحار هناك تقع فى فصل الشتاء الطويل الذى يستمر نحو 6 شهور وكذلك معظم حالات الطلاق! فتعجبت للمفارقة وليس لهذه المعلومة الصحيحة . . فلقد تذكرت أننى فى شبابى حين كنت أقيم وحيداً فى مسكنى . . كنت أشعر

بحاجتى للزواج كل سنة فى فصل الشتاء، حين ينشغل عنى الأصدقاء المتزوجون ببيوتهم وأسرهم وأولادهم ويجدون فى دفئها ما يغنيهم عن الخروج إلى المقهى فى الأمسيات الباردة، وأحسم أمرى وأقرر الزواج فما أن أتوصل إلى القرار حتى يكون الشتاء قد مضى وأتت شهور الربيع والصيف. . وازدحم المقهى برفاق السهر حتى الفجر، وتنوعت السهرات وتعددت. . «فأسهو» عن تنفيذ القرار إلى أن يفاجئنى الشتاء التالى، فأبدأ فى التفكير فى الزواج من جديد حتى تخطيت الـ30 بعدة سنوات قبل أن أتزوج!

ولقد كان الشائع من قبل أن حرارة الجو فى الصيف تتلف الأعصاب وتؤدى الى كثرة المشاجرات والخلافات الزوجية. . وهذا صحيح فى أحد وجوهه. . ولكن الطب النفسى يقول لنا الآن إن حرارة الجو ولهيب الشمس. . والجو الصحو المنطلق، أكثر ملاءمة للصحة النفسية وأفضل كثيرًا لحالة الإنسان المعنوية، وأن خلافاته انفجارات مؤقتة لا تترك آثارًا غائرة فى نفسية الإنسان. . ولا تسمح له بالتعرض للاكتئاب فى كل الأحوال، فإن سجن البيت والاكتئاب أكبر خطرًا على النفس من آثار التعرض لشمس الصيف. . أو أمطار الشتاء.

ولقد أدرك ذلك كثيرون قبل اكتشاف هذه الحقيقة، فكان الفيلسوف الألمانى «كانت» يخرج كل يوم فى الثالثة والنصف من بيته بمدينة كينجزبرج فى نزهة يومية ومن خلفه خادمه العجوز

«لامب» ، يحمل فى يده مظلة يحمى بها سيده من مطر الشتاء ، وكان «كانت» يحافظ على هذا الموعد اليومى المقدَّس مهما كانت رداءة الجو أو برودته ، حتى كان ظرفاء المدينة إذا رأوه يغادر بيته فى موعده اليومى ضبطوا ساعاتهم على الثالثة والنصف !

وحافظ الفيلسوف الألمانى شوبنهاور الذى عاش حياته وحيداً على 3 مواعيد مقدسة فى حياته لا يتنازل عنها أبداً مهما كانت حالة الجو أو حالته هو الصحية . . موعد الخروج من بيته للغداء فى فندق إنجلترا ، ثم موعد الـ5 مساء للنزهة لمدة نصف ساعة بخطوات سريعة مع كلبه . . ثم موعد العشاء بعد إعادة الكلب للبيت فى نفس الفندق ، وظل ملتزمًا بهذه المواعيد الـ3 حتى مات بعد أن تخطى الـ70 رغم برودة الجو فى بلدته . .

والأديب الفرنسى العظيم أناتول فرانس كان له أيضًا موعد مقدس يحرص عليه كل يوم صيفًا وشتاءً ، هو الخروج فى الأصيل والذهاب إلى حديقة اللوكسمبورج لمشاهدة الناس والفتيات الجميلات . . فإذا كان الجو ممطراً والحديقة خالية تمشَّى فى ممراتها بعض الوقت محتميًا بمظلته ، ثم يعود إلى بيته .

وأديبنا العظيم نجيب محفوظ كان - رحمه الله - يحرص على مغادرة بيته كل يوم فى الصباح الباكر ، مهما كانت حالة الجو ليذهب إلى المقهى ، ويشاهد الناس والحياة من وراء زجاجه أو إلى مكتبه بالأهرام للالتقاء بالأصدقاء والزوار ، وقد كان يقوم بهذا المشوار كل

يوم مشيًا على قدميه، وحين تخطى الـ80 أصبح يكتفى بالخروج راكبًا لمدة ساعتين كل صباح يتواصل خلالهما مع الحياة.

وهؤلاء جميعًا وغيرهم من الأعلام.. والبسطاء نفذوا وينفذون نفس هذه الروشتة الحديثة التى يقدمها لنا علم النفس الحديث، فإذا كان الأمر كذلك يا صديقى.. فاخرج أنت أيضًا فى الجو العاصف ولا تستسلم لتجهم الجو حولك.. ولا تسجن نفسك داخل جدران بيتك أيامًا طويلة خوفًا من البرد والمطر، فلأن تشكو من لفحة برد أرحم كثيرًا من أن يتسلل اكتئاب الشتاء فيملأ روحك بالحزن الغامض.. والشجن!

وإذا كان هناك من يستحقون الإشفاق حقًا.. فهم هؤلاء الذين يعجزهم المرض عن مغادرة بيوتهم.. فيزيد سجن الشتاء من إحساسهم بسجن المرض ووطأته.. عافاك الله من كليهما.. وحمى الإنسان فى كل زمان ومكان من الوحدة.. والمرض وأحزان الشتاء.

كُـــلْ .. واشــكرْ !

تخيَّل أنك تجلس على الشاطئ، ترقب المصيفين من حولك . . وفجأة لمحت طفلاً صغيراً في البحر، وقد غلبته الأمواج وسحبته بسرعة هائلة إلى موقعه، ثم درت حوله حتى لا يعرقل حركتك، حين يتشبث بك، واحتضنته من الخلف وهدأت روعه وبدأت تسبح عائداً به إلى الشاطئ . . وفي الطريق، قاومت الموج العالي أكثر من مرة، وصمدت له وبذلت مجهوداً بدنيّاً كبيراً حتى بلغت الشاطئ منهكًا، فتركت الطفل يفلت من بين يديك، وارتميت على الأرض تلهث منهكًا وتحاول التقاط أنفاسك، في حين جرى الطفل - وهو لا يصدق نجاته - إلى أسرته . .

وبعد قليل رأيته عائداً إليك مع سيدة تمسك بيده، قدرت أنها أمه . . وتهيأت نفسيّاً لأن تسمع منها عبارات الشكر والثناء على شهامتك ومروءتك، فما إن اقتربت الأم، حتى سألتك : هل أنت الذي أنقذت طفلي من الغرق؟

وأجبت في تواضع : نعم يا سيدتي .

فإذا بها تقول لك : إذًا أين الساعة التى كانت فى يده؟!

ماذا ستفعل حين تسمع ذلك؟ أقول لك أنا . . ستنظر إليها ذاهلاً ومندهشًا ومكتئبًا وأنت لا تصدق ما سمعت وستشعر بغصة شديدة فى حلقك تعجزك عن الكلام وبحجر ثقيل هبط فجأة فوق صدرك ، وكيفما انتهى الموقف بينك وبينها! فسوف تعود إلى بيتك وأنت تحس بالقهر والغيظ والمرارة ، بدلاً من أن ترجع إليه راضيًا عن نفسك وعمّا فعلت ، وقد تعقد العزم على ألا «تفعلها» مرة أخرى مع أى إنسان آخر . . فتكون النتيجة أن تنقص مروءتك بدلاً من أن تزيد . .

إن هذا بالضبط هو ما يفعله الجحود والإنكار وكتمان الشكر والجلافة التى تصل إلى حد الوقاحة أحيانًا فى نفوس البشر .

فالجحود يؤدى إلى انتشار قيم الأنانية والإحجام عن العطاء . . ويضعف من النخوة والشهامة والمشاركة ، ويفسد على الإنسان سلامه النفسى بما يخلفه فيه من مرارة تجاه من توقع منه الشكر ، فإذا به يتلقى منه طعنة جارحة ، فضلاً عمًّا فى الجحود نفسه من تناقض غير منطقى وصارخ بين الفعل ورد الفعل .

لهذا كله حثت الأديان السماوية البشر على أن يتعلموا الشكر ، ويكتسبوا فضيلته وعادته ، ابتداءً من شكر المنعم الأكبر جل جلاله إلى شكر كل إنسان أحسن إليهم عملاً أو قولاً . . وأن يستفيدوا

بفضيلة الشكر فى التقليل من شرور الحياة ودفعها فى اتجاه مثلها الأعلى، ولهذا أيضًا أحب الله الشاكرين له ولعباده على السواء، ووعدهم حسن الجزاء ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾*، وكره الجاحدين لنعمته ولأفضال عباده عليهم، واعتبر من شكر إنسانًا على صنيع أدَّاه ولو كان تافهًا فكأنما شكر ربه وأحسن عبادته، فقال فى الحديث القدسى: «عبدى لم تشكرنى إذ لم تشكر عبدى الذى أجريت نعمتى على يديه».

وقال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، ورفع إنكار الشكر لمن يستحقه أو كتمانه إلى مرتبة الكفر فقال فى حديث آخر: «من أُعطى عطاء فوجد - أى وجد لديه ما يرده به إلى المهدى - فليجزه، ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر ومن كتم فقد كفر». . أى أن من كتم الشكر بخلاً به على من يستحقه أو تكبراً واستعلاءً فقد كفر بنعمة ربه التى أجراها على يدى عبده. . وجاء فى الأثر أيضًا أن المؤمن إذا مُدح فى وجهه ربا الإيمان فى قلبه؛ أى زاد الإيمان فى نفسه، واستحب أن يكثر من العمل الطيب الذى استحق به الشكر.

لكن مؤونة الشكر والعرفان ثقيلة على بعض النفوس، وتحرك فى أصحابها الإحساس بالنقص إزاء من يستحقونها، ولا يقوى عليها إلا أهل الحق، وأصحاب النفوس الكبيرة.

---

* آل عمران: الآية 144.

لهذا يهون علينا علماء النفس ما نحسه من مرارة حين نتوقع الشكر من الآخرين، فنتلقى الصفع، بأن الجحود فطرة إنسانية قديمة، ويرون لنا أن السيد المسيح عليه السلام قد شفى ذات يوم 10 من المشلولين، فلم يشكره منهم سوى واحد، وأما الـ9 الآخرون فقد انصرفوا عنه دون كلمة شكر واحدة!

ويقولون لنا أيضًا إن الإمبراطور الروماني الحكيم ماركوس أورليوس كتب منذ أكثر من 1700 سنة: «سألتقى هذا اليوم بأشخاص أنانيين جاحدين لكن ذلك لن يدهشني لأن الحياة لن تخلو منهم أبدًا».

فهل يعني ذلك.. أن نسلِّم بهذا البلاء ونيأس من شفاء البشر منه؟

ليس هذا هو الهدف بكل تأكيد، لكن النصيحة هي أن تستهدف بعملك وجه ربك لا شكر الآخرين فإن جاء الشكر منهم فقد رفعوا عن أنفسهم إثم كتمانه وأعفوا أنفسهم من عار كفر النعمة، وإن لم يجئ ففي السماء رزقكم وما توعدون، ولقد شكر الله لك ما فعلت قبل أن يشكره لك البشر، وأضيف إلى رصيدك من الخير والفضائل، سواء أقر لك به الآخرون أم لم يفعلوا، والهدف أيضًا هو أن تبدأ أنت بنفسك فتكون من الشاكرين لربك.. وللبشر وللحياة وللجميع، ففي كلمة «شكرًا»، تقولها لمن أفسح لك

الطريق أو جاءك بكوب ماء، عبادة وأخلاق ودين، وفيها شهادة أيضًا لك بأنك إنسان راق متحضر. . إذ أنك لو دققت النظر، للاحظت أن عادة الشكر ترتبط عند البشر بالمستوى الحضارى والثقافى لهم. . فكلما ارتقى الإنسان اجتماعيّا وثقافيّا كثر استخدامه لمفردات الشكر وتعبيراته المختلفة، وكلما انخفض مستواه الثقافى والحضارى والأخلاقى. . ندرت عبارات الشكر على لسانه ولم يحس بحاجته إليها لانحطاط قيمه الأخلاقية والدينية، وعجزه عن إدراك حقوق الآخرين عليه. كما أن الشكر أو اكتماله يرتبطان أيضًا بسلامة الشخصية ومدى خلوها من مركبات النقص؛ فالشكر لا يحس بأى نقص تجاه من يشكره.

والمجتمع السليم المتحضر هو الذى تنتشر فيه عبارات الشكر فى التعامل اليومى بين البشر. .

فقط ينصحك رجال الأخلاق بألا يكون شكرك للآخرين نفاقًا لهم أو استجداءً للمزيد من خدماتهم، وبأن يكون الشكر مكافئًا لما تلقيت من صنيع فلا تبخسهم حقهم منه. . ولا تزيدهم فوق قدرتهم بالمبالغة التى تتضمن إساءة خفية لهم، بغير قصد. . فأنت حين تبالغ كثيراً فى شكر من قدَّم إليك خدمة صغيرة، فكأنك تقول له من حيث لا تقصد: يا إلهى لم أكن لأظنَّ أنك من أصحاب المروءات. . لكنك أثبَتَّ لى عكس ذلك. . فشكراً لك!

ولا أظن أن أحدًا يسعده أن يسمع ذلك من أى إنسان، لهذا ففى الاعتدال تكريم لمن تمدحه وتأكيد له بأنه أهل لما فعل، والحق أننا نحتاج جميعًا لأن نتعلم فضيلة الشكر ونقبض عليها بأيدينا وألاَّ ننساها فى معاملاتنا مع الجميع؛ لأنها تيسر الحياة وتقلل من صعوباتها.. وتأسر النفوس وتحثها على العطاء والمشاركة بدلاً من الانكفاء على الذات، ونحتاج إلى أن ندرب أنفسنا على ألاَّ تفسد علينا المرارة، التى نحسها حين يكتم الآخرون عنَّا شكرنا أو يتنكرون لنا، سلامنا النفسى واستعدادنا لمواصلة العطاء للحياة وللآخرين.

وقد مر السيد المسيح بقوم من اليهود فقالوا له مقالة سوء، وقال لهم مقالة خير، فتعجب حواريوه وقالوا له: إنهم يقولون لك شرّاً وتقول لهم خيراً.. فقال: كل واحد ينفق مما عنده!

والتنزيل الحكيم يقول لنا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾*. إذًا فلتكن أنت يا صديقى من هؤلاء «القليل».. ولا يحملنك جحود الآخرين أو عقوقهم على أن تضع نفسك أنت حيث يجدر بها أن تكون، فأرسطو يقول: «إن من دلائل رفعة الشأن أن يسدى المرء صنيعًا للآخرين».. وأنت بلا شك من أصحاب «الشأن الرفيع» إذًا فلا تبخل بعون تملكه على أحد ولا بعطاء تقدر عليه للحياة أو للآخرين.. شكروا لك أو لم يشكروا.

* سبا: الآية 12.

وقديمًا لخَّص الفاطميون بغير أن يقصدوا أزمة الجحود الإنسانى كلها فى نوع من الحلوى كانوا يقدمونه فى المناسبات الدينية فأسموه: «كل واشكر». . لكننا قد أكلنا جميعًا. . ولم نشكر، أو شكر منَّا «القليل» وكتم الكثير أو جحدوا، وتواصل «الجحود». . واستمر حتى يومنا هذا يرسِّب المرارة فى النفوس!

مدينــة العــذاب !

هنا الطريق إلى مدينة العذاب

هنا الطريق إلى الألم الأبدى

أيها الداخلون

اطرحوا عنكم كل أمل !

قرأت هذه «التحذيرات» على باب مدينة العذاب . . ورغم ذلك فقد خطوت إليها بقدمى لأرى ما يجرى فيها . . وأشهد عذاب المحكوم عليهم بالشقاء فيها إلى مالا نهاية!

وفى مدخل المدينة رأيت أشخاصًا لا يكلمهم أحد . . وتبدو الحسرة على وجوههم . . فسألت مرافقى فى هذه الرحلة العصيبة عنهم، فقال لى إنهم الأشخاص الذين لم يفعلوا فى حياتهم خيراً ولا شرّا . . ثم قال لى مشيراً إليهم : هؤلاء التعساء لم يكونوا أحياءَ قَطُّ وهم مكروهون من الله . . ومن أعداء الله فى نفس الوقت؛

لأنهم أهدروا حياتهم فيما لا طائل تحته . . وعبروا بالحياة فتقاعسوا عن الخير . . ولم يجرؤوا على الشر! لهذا فهم يحسدون الأخيار على حسن جزائهم : . ويحسدون الأشرار أيضًا على إرادتهم التى نالوا بها بعض لذائذ الحياة وسيدفعون الثمن عنها فى مدينة العذاب راضين أو راغمين!

تفكرت فى حالهم قليلاً ورثيت لهم ، وتذكرت الشطرة الأخيرة من الكلمات المكتوبة على باب المدينة : أيها الداخلون . . اطرحوا عنكم كل أمل! وتأملت مغزاها العميق الذى يقول لنا : إن أشد من كل أنواع العذاب الجسدى ، أن يفقد الإنسان كل أمل له فى الحياة!

اتبعت مرافقى إلى داخل المدينة خائفًا . . ومرافقى هو الشاعر الإيطالى الكبير دانتى ، الذى صحبته ليلة كاملة فى كتابه الخالد «الكوميديا الإلهية» . . ورأيته بعين الخيال يتبع أستاذه الشاعر الرومانى العظيم «فرجيل» ليريه عالم الجحيم . . وإذا كان دانتى قد تبع فرجيل ليرشده إلى معالم المدينة . . فلقد تبعته أنا تلك الليلة ومضيت أنتقل وراءه من صفحة إلى صفحة حتى تسلل الصباح إلى غرفتى .

وكانت رحلتى معه قد بدأت **بمدخل المدينة** . . ثم عبرت وراءه نهر العذاب الذى تتألف مياهه من دموع الآثمين .

وتنقلت معه بين منازل الجحيم المتدرجة ، فرأيت فى **حلقتها الثانية** هؤلاء الذين غلَّبوا العاطفة على العقل ، وهم نوعان ،

الأول : من أمعنوا فى حياة الفسوق بإرادتهم فاستسلموا لشهواتهم . . والثانى : هم من ارتكبوا الخطيئة بسبب العاطفة ، وأخلصوا فى حبهم لشخص فقادهم الحب للخطيئة .

وعذاب كل هؤلاء هو أن تدور بهم عاصفة هوجاء من الهواء الأسود إلى الأبد، دون راحة ودون أمل فى أن تهدأ حولهم لحظة ، فإذا هدأت فى بعض الأحيان فإنها لا تهدأ حول أصحاب الشهوات . . وإنما حول من أثموا بسبب الحب فتترفق بهم لحظات كأنما تفعل ذلك مراعاة لدوافعهم وتقديراً لخلو سجلهم من إدمان الخطيئة !

رأيت الجميع تتلاعب بهم رياح الجحيم، فلا تستقر بهم حال فقلت فى باطنى : وهكذا أيضًا من يرخى العنان لشهواته وعواطفه الجامحة فى الحياة فيفقد اتزان العقل وتتلاعب به عواصف الدنيا .

ودعت هؤلاء مشفقًا على طائفة واحدة منهم هى طائفة الآثمين بسبب الحب، ومضيت وراء مرشدى الكبير إلى **المرتبة الثالثة** من مراتب الجحيم . . فرأيت طائفة أخرى من المعذبين يهطل عليهم المطر وقطع الثلج الكبيرة بلا توقف ويغمرهم الوحل والماء ليل نهار . . وسألت مرافقى فقال لى عنهم : إنهم الذين ارتكبوا فى الدنيا خطيئة الطمع والجشع والشره . . فقلت فى باطنى : ألا . . فى الوحل

سقطوا، فعسى أن يشبعوا فيه نهمهم الذى لم يشبعه شىء فى الدنيا.

ومضيت وراءه إلى **الحلقة الرابعة** هى مقر البخلاء والمسرفين أيضًا وعذابهم أن يسير البخلاء إلى اليسار وهم سود الوجوه من أثر البخل، فى نصف دائرة يرفعون بصدورهم صخوراً ثقيلة.. ويسير المسرفون فى نصف دائرة مقابلة تمضى فى اتجاه عكسى ويتصايحون عند اللقاء ويعير بعضهم بعضًا، فيعير المسرفون البخلاء ببخلهم ويعير البخلاء المسرفين بإسرافهم.. وهكذا إلى مالا نهاية!

فراقبتهم بعض الوقت متعجبًا لحالهم، ثم مضيت وراء مرافقى إلى **الحلقة الخامسة** وهى حلقة أو مرتبة هؤلاء الذين كانت خطيئتهم فى الدنيا سرعة الغضب ومقرهم فى جحيم دانتى مستنقع كريه يتضاربون فيه عرايا بالرءوس والأقدام لينفسوا عن غضبهم كيف يشاءون، وتحت هؤلاء يرقد فى نفس المستنقع أهل الكسل الذين «ينامون» حتى فى الجحيم فى الماء ويتنفسون تحته فيرسلون الفقاقيع إلى سطح المستنقع! وإلى جوارهم يستقر أيضًا أهل التكبر والمتكبرين.. كأنما يقول لهم دانتى.. إن مأواكم هو هذا المستنقع الكريه!

تأملت أحوالهم طويلاً.. ولم أرث لأحد منهم.. وانطلقت وراء مرافقى إلى **الحلقة السادسة**، وكانت حلقة الملاحدة والهراطقة والمتشككين فى وجود الله سبحانه وتعالى، وعذابهم أن يدقوا فى

الجحيم فى توابيت تتوهج بألسنة اللهب وتتصاعد منها صرخات الألم إلى مالا نهاية.

عبرت هؤلاء سريعًا فوصلت مع مرافقى إلى **الحلقة السابعة** من حلقات الجحيم وتنقسم إلى عدة دوائر مختلفة..

أولها: نهر تغلى فيه الدماء ويتعذب فيه مرتكبو جرائم العنف فيغطسون فى هذا النهر اللاهب كل حسب جريمته، فمنهم من يغطس فيه حتى عينيه، ومنهم من يغطس فيه حتى صدره.

وثانيها: غابة موحشة من أشجار متشابكة وسامة.. وهى مقر المنتحرين فى الدنيا، وعذابهم أن تتحد أرواحهم بأشجار جافة تنهشها حيوانات خرافية ضخمة فتئن أرواحهم إلى الأبد من وطأة العذاب!

وثالثها: سهل من الرمال الجرداء المحترقة وهو مقر من لعنوا الله أو اعتدوا على الطبيعة أو الفن! أو لم يحفلوا بروابط الأسرة، وعذابهم أن تتساقط عليهم ألسنة من اللهب.. فيحاولوا إبعادها عن أنفسهم بلا نهاية.. ولا نجاح!

ثم تتوالى بعد ذلك وديان الجحيم وخنادقه التى رحت أتنقل بينها، فرأيت فى إحداها من ارتكبوا جريمة غواية النساء بالكلمات المعسولة أو بالخداع أو بالاستدراج للاستفادة المادية من ورائهن.. وعذابهم أن تجلدهم شياطين لها قرون بارزة إلى مالا نهاية!

وفى واد آخر، رأيت العرَّافين والمنجمين ومدعىٍّ قراءة المستقبل والسحرة ولفت نظرى أن عذابهم هو أن يسيروا إلى الأمام وقد التوت رءوسهم وأعناقهم إلى الخلف ودموعهم تبلل أردافهم مع شواظ اللهب التى يسيرون فوقها. . وفهمت أن مرافقى الكبير دانتى يريد أن يقول لى بهذا الوضع المعكوس أن هؤلاء العرافين قد حاولوا بجهلهم فى الدنيا أن ينظروا إلى المستقبل الذى لا يعرفه إلا الله. . وهم الآن فى الجحيم يسيرون إلى الأمام وهم لا يرون ما تحت أقدامهم!

وأعجبنى هذا الخيال الشعرى العبقرى، فتوقفت خلال المرحلة وأصررت على أن أقبل رأس دانتى تحية وإجلالاً. لكنه أفلت منى ضاحكًا ومتواضعًا ودعانى لمواصلة السير، فرأيت عذاب المرتشين فى وادى القطران، وكان عذابًا فريدًا من نوعه أيضًا، فلقد رأيتهم يغطسون فى قطران أسود كالذى ترم به السفن وهو فى درجة الغليان أو أشد، وحولهم شياطين ومردة ترقبهم فإذا ما طفا أحدهم محاولاً إنقاذ نفسه من هذا اللهيب، ألقوا إليه بالخطَّاف وأخرجوه منه وتشاركوا فى تمزيقه إربًا.

ورأيت فى واد آخر عذاب المنافقين وهم يسيرون فوق اللهب بملابس برَّاقة ومُزركشة بخيوط الذهب ومبطنة من الداخل بالرصاص الثقيل. . ومغزاه أن ثيابهم براقة من الخارج، لكنها مبطنة من الداخل بالرصاص الثقيل الذى يبطئ من خطواتهم فوق لهيب النار ويزيد من عذابهم.

ورأيت عذاب اللصوص وهم يعيشون عراة موثوقة أيديهم إلى الخلف وأجسامهم تلتف حولها الثعابين والحيَّات الضخمة.

ورأيت فى خندق آخر مستشارىِّ السوء الذين لا يصدرون فى آرائهم عن إخلاص أو تجرُّد، وعذابهم أن يلتف حول عنق كل منهم طوق من النار يدور حوله باستمرار ويحرقه إلى الأبد، جزاء خيانته أمانة الرأى والمشورة.

ورأيت بعدهم مثيرى الفتن الدينية والسياسية.

ثم رأيت فى آخر منازل الجحيم وأعمقها خونة الأهل والأقارب والأصدقاء، وجاحدى فضل من أحسنوا إليهم.. وعذابهم هو أن يعيشوا إلى الأبد فى بحيرة مجمدة، وأن تبرز رءوسهم فوق الجليد كرءوس الضفادع.. وأن يبكوا ثلجًا! أى تتجمد دموعهم فى أعينهم فتحول بينهم وبين الرؤية، كما حال جحودهم فى الدنيا بينهم وبين الوفاء لمن أحسنوا إليهم، ومع هؤلاء وفى نفس البحيرة يلقى خونة الوطن والمبدأ السياسى عذابهم الأشد والأقسى، ورأيت أحدهم وقد نبت له رأسان، تنهش كل رأس منهما الأخرى إلى مالا نهاية.. والعياذ بالله! وهم فى رأى دانتى ورأى العقلاء فى كل زمان ومكان نفاية البشر.. وقد اختار لهم أن يعيشوا فى بحيرة من الثلج الشفاف لتكشف للآخرين حقيقتهم التى تخفَّت عنهم فى الدنيا.

وانتهت جولتى داخل مدينة العذاب . . فطويت كتاب الجحيم من ملحمة «الكوميديا الإلهية» . . ورفعت رأسى عن الكتاب . . واستسلمت لتأملات مزعجة!

كـــنت أتكـــلم !

كنت فى ذلك الوقت أقيم فى بيت للطلبة بقرية صغيرة اسمها بينارث تقع على بعد 20 كيلو متراً من مدينة كارديف البريطانية . مضى شهران على مجيئى إليها للالتحاق بدورة دراسية عن الصحافة فى مؤسسة طومسون . نتلقى الدراسة فى مقر المعهد الصحفى التابع للمؤسسة فى مدينة كارديف، ونقيم فى بيت الطلبة العالمى فى بينارث .

ساعات الصباح تمضى سريعة مشحونة بالإثارة فى قاعة الدرس . . ثم فى التجول فى شوارع كارديف بعدها . . وساعات المساء تمضى بطيئة ثقيلة فى غرفتى بيت الطلبة .

فى أيامى الأولى كنت أخرج بعد تناول العشاء مع الطلبة فأمشى مسافة طويلة إلى أن أصل إلى بار «الريلواى» أو «سكة الحديد»، الذى يجمع شباب القرية كل مساء فأندس وسطهم وأتشاغل عن وحدتى بمراقبتهم . . ومحاولة تتبع العلاقات بينهم . . لم تساعدنى

زجاجة المياه الغازية، التى لا أشرب سواها، على خلق مناسبة للحديث مع أحد، وهم شباب تدور أعمارهم حول الـ20، ولا يرحبون بالحديث مع الغرباء وأنا تخطيت الـ35 وقتها. وإحساس الشباب الصغار بفارق العمر كبير حتى تجاه من كان مازال يعتبر نفسه فى سن الشباب مثلى، شاهدت زميلاً عربيًا فى الدورة فى الـ38 من عمره يتودد إلى فتاة فى الـ20 ويدعوها إلى شراب فسمعتها تصده وتقول له: أنت عجوز بالنسبة لى! ولم يدهشنى إعراضها عنه وإنما أدهشنى سبب الإعراض، فعزفت عن محاولة الاقتراب من أحد، واكتفيت بتأمل الجالسين من حولى والاستمتاع إلى أحاديثهم.

لكن متعة التأمل قصيرة وسرعان ما يستقر الملل فى النفس، فأغادر البار وأعود إلى البيت سائرًا الطريق الطويل على قدمى، صامتًا تحلّق أفكارى بعيدًا.. وتعبر البحار إلى أحبائى وأصدقائى فى مصر.. صداقة الروح مع من تفهمه ويفهمك بغير كلام شىء عزيز المنال، لكننا لا نعرف قيمته إلا حين نجد أنفسنا بين كثيرين «ليس لى فى زحامهم أحد» كما قال الشاعر.

لى زملاء فى الدورة.. وزملاء فى بيت الطلبة، نلتقى فى قاعة الطعام فى الصباح وفى المساء.. ونلعب تنس الطاولة معًا، ولكن حديثى معهم لا يعدو «حديث القطار»، بين ركاب غرباء يتبادلون المجاملات ويتعاونون على قطع الوقت بالحديث العابر، الذى قد يسلى المرء قليلاً، لكنه لا يغذى الروح ولا يشبع احتياجها الإنسانى إلى الرفقة.

أما أصدقاء القلب فهم أصدقاء الروح الذين نتعرى أمامهم بأفكارنا وخواطرنا وهواجسنا وضعفنا، ولا نحتاج لأن نتخير كلماتنا معهم أو نتجمل أمامهم . . فأين هم فى هذا المكان البعيد؟

ألا تصادفك مفارقة مضحكة . . أو موقف مثير للتأمل تواجهه وحدك فى مكان ما، فتقرر بينك وبين نفسك أن تروى هذه المفارقة لصديق لك بعينه، لأنه الوحيد من بين أصدقائك الذى سيفهمها ويشاركك تعجبك وسخريتك منها، فإذا التقيت به بعد أيام كانت هذه المفارقة هى موضوع حديثك معه؟ أنا شخصيّا أحس بهذه الرغبة كثيراً، وبعض أحبائى حين رحلوا عن الحياة وانقطعت بينى وبينهم السبل أحسست أن جزءاً من حياتى وذكرياتى وأفكارى قد رحل معهم إلى العدم . . فمع من أتحدث عن شىء لم يكن ليفهمه غيرهم؛ لأنه تجمعنى بهم وبمن أتحدث عنهم ذكريات مشتركة؟ حتى سخريات القلب الحزين تحتاج إلى من يرتبطون بأشخاصها وذكرياتها المشتركة لكى تستطيع أن تخرجها من سجنها داخلك، وتشارك معهم فى السخرية منها . فإذا افتقدتهم بقيت داخل النفس، وتحولت إلى أحاديث داخلية صامتة تزيد من وحدتك وإحساسك بالغربة وسط الزحام .

إن الإنسان فى حاجة دائمًا إلى من يتراسل معه على موجة التفاهم الواحدة وإلى من يحترم مشاعره ويجد صدى الاهتمام

بأحاسيسه لديه، فإن لم يجده تحدث أحيانًا إلى نفسه . . أو إلى مرآته أو أوراقه، وفى قصة تشيكوف الشهيرة لم يجد الحوذى العجوز الحزين من يستمع إلى همه بوفاة ابنه فتحدث به إلى حصانه، وخيِّل إليه أنه رأى الدمع يتجمع فى عينى الحصان تأثُّرًا بأحزانه.

وفى قصة «الصمت» لنجيب محفوظ غادر الممثل الكوميدى المحبوب صقر المستشفى، مهمومًا بأمر زوجته التى ستلد بعد قليل بعملية قيصرية، وتوجه إلى المقهى الذى يلتقى فيه بأصدقائه، وكلما هم بأن يتحدث عن أحزانه وخوفه على زوجته، علَّق الصديق على مخاوفه تعليقًا عابرًا، ثم حوَّل الحديث إلى اتجاه آخر فأحس بوحدة شديدة بين أصدقائه وقرر ألا يتحدث عن همومه مع أحد، وجاراهم فى أحاديثهم بقلب غائب، ثم انصرفوا جميعًا للغداء ما عدا صديقًا واحدًا بقى معه، أنس إليه صقر وهم بأن يحدثه عن مخاوفه فإذا بالصديق يبادره بالحديث عن همومه وعن مرض بالدم اكتشفه منذ أيام، فراح كل منهما يحدث الآخر عن همه . . فلا يسمع له إلا بمقدار ما يلتقط منه خيط الكلام، ثم يصارحه مخاوفه هو، إلى أن أجهدهما الكلام ولاذا بالصمت واندفن كل منهما داخل ذاته يجتر أحزانه وحيدًا، ويتمنى لو غرق كل شىء فى الصمت ليخلو بأفكاره وأحزانه!

وفى كتاب «الإمتاع والمؤانسة» روى أبو حيان التوحيدى، أن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز قد قال ذات يوم لأصحابه: والله إنى لأشترى المحادثة من عبيد الله بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين.

فقيل له: أتقول هذا يا أمير المؤمنين مع تحرّيك وشدة نزاهتك فأجابهم: أين يذهب بكم.. والله إنى لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف الدنانير». إن فى المحادثة تلقيحًا للعقول وترويحًا للقلب وتسريحًا للهم وتنقيحًا للأدب!

ومرض ابن الرومى وزاره أصدقاؤه فأنشدهم قوله:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مَآرِبِى ... فكانَ أطْيبُهَا خَبِيثُ
إلاَّ الحديثَ فَإنَّهُ ... مِثلُ اسْمِهِ أبَدًا حَدِيثُ

أى جديد.. ومتجدد.. ويحقق الإيناس.. ويدفع الوحشة عن النفس.

وصداقة الروح فى أحد وجوهها «كلام» مع من تأنس إليه وتثق فيه وتستريح إليه.. والعشرة الجميلة حبل متصل من الكلام المريح مع شريك الحياة، ولقد اعتدت فيما بعد إذا سألتنى فتاة لم تتأكد بعد من مشاعرها تجاه خطيبها وتريد أن تعرف هل تحبه أم لا، أن أسألها هل تسعدين بلقائه إذا جاء وتفتقدينه إذا غاب؟.. هل يطول

الحديث بينكما وتشعرين دائمًا بأن عندك ما تريدين أن تقوليه له وتسمعيه منه . . ؟ هل يمكن أن تمضيا معًا أمسية طويلة وأنتما تتحادثان فى كل الأمور بغير أن ينقطع حبل الكلام بينكما لحظة أو تسأمى الحديث إليه؟ فإذا كانت إجابتها بنعم عن كل ذلك طمأنتها إلى أنها تحبه وتمنيت لها حياة سعيدة معه .

وكذلك الحال فى الصداقة الحقيقية . . فهى كالحب ضد الصمت والانكفاء على الذات وسط الآخرين .

وبعد أن سئمت الخروج ليلاً من بيت الطلبة العالمى فى بينارث أصبحت أمضى أمسياتى وحيداً فى غرفتى أطل من نافذتها على شاطئ البحر وأتأمل سقوف البيوت الإنجليزية الحمراء وسط محيط الخضرة الذى يلفها من كل جانب . . وأسرح بأفكارى بعيداً إلى مصر وأحبائى فيها، وأمسياتنا الزاخرة بالأحاديث الحية الطويلة، بعد أن سئمت الأحاديث القصيرة العابرة مع زملاء الدورة وزملاء البيت، وتاقت نفسى إلى جلسة صفاء طويلة مع أحد أصدقاء الروح، الذين لا ينقطع حبل الكلام معهم . وكان لى صديق من أيام الدراسة يقيم فى لندن قبل سنوات ويتصل بى تليفونيّا فى بيت الطلبة كل أسبوع فنتبادل الأخبار والاطمئنان .

ثم جاءت خلال الدراسة إجازة لمدة 5 أيام . فقرر بعض زملاء الدورة أن يشتركوا خلالها فى رحلة ينظمها البيت إلى مدينة

بريستول القريبة من كارديف، وقرر البعض الآخر أن يقضيها فى بينارث أو فى مدينة أخرى، وطلب منى أحد زملائى بالدورة مشاركته رحلة بريستول لكى يخفف كل منا عن الآخر وحدته، لكنى اعتذرت له بأنى سأسافر خلال الإجازة إلى لندن واتصلت بصديقى وطلبت منه انتظارى صباح غد على رصيف محطة فيكتوريا، لأنى أريده فى أمر مهم وعاجل، وركبت القطار فى الصباح نشيطًا ومبتهجًا . . واستمتعت برحلته التى استغرقت 3 ساعات، ثم نزلت إلى المحطة فاصطحبنى صديقى إلى سيارته وهو يقول لى :

ـ شغلتنى عليك . . ما هو الأمر المهم الذى أردتنى فيه؟

فأجبته ببساطة : لا شىء . . فقط أريد أن أتكلم! وضحك صديقى سعيدًا بما قلت وأقسم لى أنه كان على وشك أن يسافر إلىَّ فى كارديف ليمضى الإجازة معى؛ لأنه أيضًا «جائع» كلام مع من يفهمه ويستريح إليه، لولا أننى سبقته بالاتصال به، ولم نتوان لحظة واحدة عن أداء «المهمة» التى التقينا من أجلها وانطلقنا كالمحروم الذى وضعوا أمامه فجأة أطايب الطعام، نتكلم بلا انقطاع . . داخل السيارة . . وعلى مائدة الطعام وفى غرفة المعيشة حتى الصباح . . بلا فترة راحة لتنظيم التنفس أو التقاط الأنفاس، وكلما تراخى أحدنا فى الكلام انقض عليه الآخر، والتقط منه خيط الحديث وانطلق يتحدث بلا توقف .

ومضت الإجازة كالنسمة العابرة لم نحس بانقضاء أيامها، ولم نفعل شيئًا فيها سوى الكلام واستعادة الذكريات. . وغصنا فى بحر الذكريات إلى الأعماق حتى تجادلنا بعنف فى مسائل مضت وانتهى عهدها قبل 10 سنوات. . وفاجأنى صديقى فى أحد الليالى بأن سألنى: لماذا غضبت من فلان، وقاطعته؛ لأنه لم يتزوج فلانة زميلتنا؟ فانطلقت أشرح له أسبابى. . وانطلق هو يجادلنى ويعارضنى، وأمضينا الليلة كلها فى تقرير من كان المخطئ منهما ومن يتحمل مسئولية انهيار قصة الحب الجميلة، التى عاصرناها عن قرب خلال الدراسة.

وفى مثل هذه الأحاديث انشغلنا طوال الأجازة. . ولم ندع صديقًا مشتركًا لنا لم نتذكره ولم نناقش شئونه ولم نتجادل حوله، إلى أن نفيق إلى أننا بعيدون عنه بآلاف الأميال، ولن يجدى جدالنا شيئًا أو يغير شيئًا من ماض وقع وانتهى فننفجر ضاحكين، إلى أن حانت ساعة الصفر، وأوصلنى إلى محطة فيكتوريا لأركب القطار عائدًا إلى كارديف، فعدت إلى بينارث مزودًا بزاد روحى ثمين، يعيننى على احتمال سجن الصمت والوحدة الداخلية وسط غرباء لا يجمع بينى وبينهم إلا الجوار فى المكان.

ورجعت إلى البيت العالمى، فوجدت الطلبة قد عادوا من رحلاتهم، وكل منهم يسأل الآخر عما فعل فى رحلته؟ والآخر

يجيب ويعدد إنجازاته ومغامراته خلال الإجازة، ثم جاء الدور عليّ، وسألنى أحدهم: وأنت ماذا كنت تفعل فى لندن!

فأجبته فى تصميم : كنت أتكلم !

ذيـــل السمكـة !

كم مرة سمعت فيها هذه العبارة :

ـ فلان هذا «مقطع السمكة وديلها»؟

لابد أنك سمعتها مرات عديدة ، واستخدمتها أيضًا فى وصف شخص آخر بأنه «شيطان» أو مجرب أو غير ملتزم خلقيًا . . لكن هل سألت نفسك مرة عن العلاقة بين «الشيطنة» وبين ذيل السمكة! أو عن المعنى الدقيق لهذه العبارة ، الذى يبرر استخدامها فى هذا الوصف؟

من «آفاتى» الثقافية أننى أكره أن استخدم كلمة ، أو عبارة دون أن أفهم معناها الدقيق قبل استخدامها . . وأن ألاحق محدثى بالسؤال عن معنى أى كلمة أو عبارة . . يستخدمها فى حديثه معى . . ولا أفهمها أو أشك فى أنه هو نفسه لا يفهمها . . وقد حدث أن وصف صديق لى آخر بهذه العبارة ، فسألته عن معناها . . ففوجئ بالسؤال وفكَّر قليلاً ، ثم اعترف لى بأنه لا يعرفه . . فسألت

الحاضرين عنه فأجمعوا على أنهم لا يعرفون معناها، رغم أنهم يستخدمونها كثيراً فى حياتهم اليومية!!

وفى نفس الليلة حين عدت إلى بيتى بحثت فى كتاب الأمثال العامية عن معنى لها، فلم أجده، وظللت لا أعرف معناها ولا أجد من يفسرها لى حتى عرفت بالملاحظة - وليس بالقراءة - أن ذيل السمكة هو أصلب جزء فيها، وأنه يصعب إن لم يستحل قطعه بالسكين العادية، فيحتاج غالبًا إلى ضربة قوية بالساطور لكى تفصله عن جسم السمكة.. وهنا فقط فهمت أنها لا تعنى الشيطنة والعفرتة، وإنما تعنى الحذق والذكاء والقوة أيضًا! لأن الجميع يستطيعون تقطيع السمكة بالسكين أما من يقطع ذيلها أيضًا فهو حاذق وشاطر وذراعه قوية!

ومنذ سنوات شكا لى صديق من أن صديقًا مشتركًا عرف بيننا بالحذاقة والميل لاستخدام الكلمات الضخمة والمصطلحات الفلسفية فى حديثه العادى، قد أهانه خلال مناقشة بينهما، وقال له: أنت براجماتى.. فغضب وقال له باندفاع: وأنت حيوان!

فرد عليه الآخر الإهانة بأشد منها، واشتبكا فى تراشق مؤسف بالكلمات الجارحة وانتهت علاقتهما إلى القطيعة المؤقتة!

وسمعت القصة باهتمام، ثم سألت صديقى فى هدوء: وهل تعرف معنى كلمة «براجماتى»؟ فبهت للسؤال.. وحاول التهرب

من الإجابة لكنى ألححت عليه أن يجيبنى ، فاعترف لى بأنه لا يعرف على وجه الدقة ، لكنه اشتم فى الكلمة معنى الإهانة فرد على قائلها بالسباب !

فقلت لنفسى ، صدق من قال قديمًا : الناس أعداء ما جهلوا ، فالبراجماتية ليست كلمة سباب أو إهانة ، ومن حق من يوصف بها أن ينفيها عن نفسه ، لكنه ليس من حقه أن يعتبرها إهانة له ، فهى كلمة حديثة نسبيّا وضعها الفيلسوف الأمريكى تشارلز بيبرس (1829 ـ 1914) ، وتفيد فى أصلها اللغوى كل ما هو عملى . . وكل ما هو عملى لابد أن يكون بالضرورة تجريبيّا ، لهذا فإن الفلسفة البراجماتية تتخذ من العمل مقياسًا للحقيقة ، فالفكرة وفقًا لها تكون صادقة إذا كانت مفيدة عمليّا والعكس بالعكس . لهذا فإن النفعَ والضررَ هما اللّذان يحددان الأخذ بالفكرة أو تركها . . وهى الفلسفة التى عبرت بأمانة عن النظام الرأسمالى فى بدايته . . ونستطيع أن نقول : إن البراجماتية ضد الالتزام بمبادئ عامة أو مثاليات تحكم تصرف الفرد دائمًا وتترك له أن يقبل أو يرفض الفكرة وفقًا لتجربة العمل بها أو لفائدتها أو ضررها . . فإذا قلت لأحد إنه براجماتى ، فأنت تقصد أنه عملى أو واقعى ، لا تحكم تصرفاته نظرية أو مبادىء عامة وإنما يتعامل مع كل موقف بما يتناسب مع ضرره أو فائدته .

ومن حقك أن تكون مثاليًا، يقيس الأشياء بمعايير أخرى عدا معيار النفع والضرر.. ولا إهانة فى أن تكون براجماتيًا إذا كنت لا تغفل مصالح الآخرين وحقوقهم فى حساباتك، لكنه ليس من حقك أن تغضب إذا وصفك أحد بهذه الصفة! ففى رأيى الشخصى أن كل إنسان يجمع داخله بين النقيضين: المثالية والبراجماتية وفقًا لظروف الحياة، فلا هو يستطيع أن يعيش حياته كلها وفقًا لمثالياته وحدها، ولا هو يستطيع أن يكون واقعيًا وعمليًا دائمًا وفى كل الأحوال!

ومنذ 20 سنة أو أكثر كانت كلمة «الإمبريالية» تتردد كثيرًا فى مقالات الصحف وأحاديث المثقفين.. وأذكر أننى حضرت مرة اجتماع الجمعية العمومية لنقابة الصحفيين، فوقفت زميلة كانت معروفة بيننا بكثرة استخدامها لكلمة الإمبريالية لتلقى كلمتها.. وبدأت تتحدث عن مشاكل مهنية، فإذا بصوت زميل يقول لها مداعبًا: ادخلى على الإمبريالية!

ولم تخيب ظنه.. فعطفت سريعًا على الإمبريالية، وأشبعتها هجومًا وتنديدًا وبعد نهاية كلمتها.. سألتها عن معنى الإمبريالية الدقيق؟ فاتهمتنى بالسخرية منها، لكنى أكدت لها حسن نيتى وصدق رغبتى فى أن أعرف المعنى الدقيق للاصطلاح؟ فأجابتنى بأنه يعنى: الاستعمار الأمريكى!

ولم يكن هذا هو المعنى الدقيق للكلمة . . وإنما كان المعنى المجازى الدارج لها ؛ لأن الإمبريالية تعنى الرأسمالية الاحتكارية التى يتم فيها تركيز الإنتاج ، وتصدير رءوس الأموال للخارج ، مما يؤدى إلى قيام احتكارات دولية وتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ ؛ تسيطر عليها الإمبريالية وتوجهها إلى ما يحقق مصالحها بغير استعمار ولا قوات تحتل بلداً آخر!

وفى مناقشة أخرى منذ سنوات عديدة عن التطرف والمتطرفين ، سمعت أحد المشاركين يصف فكر المتطرفين بأنه «دوجماطيقى» ، ولاحظت أن الحاضرين لم يتوقفوا أمام الكلمة ، ولم يسأل أحدهم عن معناها؟ فملت على من بجوارى وسألته عنه؟ فصارحنى ضاحكًا بأنه كان يعتزم أن يسألنى نفس السؤال بعد انتهاء المناقشة ، وتعجبت من أن يسمع الإنسان كلمة لا يعرف معناها! ويتحرج من أن يسأل عنها حتى لا يبدو بمظهر من لا يعرف ، كأنه مطالب بأن يجمع كل معارف الدنيا فى رأسه . . ومع أن المثقف الحقيقى هو من لا يخجل أبدًا من إِن يسأل عما لا يعرف ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل وهو من هو علمًا وفقهًا لا يتحرّج إذا سئل عمّا لا يعرفه أن يقول : لا أعرف!

لهذا فقد بحثت عن معنى الدوجماطيقية لنفسى ولصديقى ، وعرفت أنها النزعة القطعية التزمتية فى التفكير ، التى لا تتسم بالمرونة والتى تنظر للأمور بمقياس الأبيض والأسود ، فتقبل ما تقبله

وتراه صوابًا لا يقبل الشك وترفض ما ترفضه وتراه خطأ لا يمكن أن يحتمل الصواب أبدًا، وكانت هذه النزعة المتزمتة التى سادت أوروبا فى العصور الوسطى هى السبب المباشر فى هجرة الأوروبيين منها إلى أمريكا. . أو ازدهار القارة الأمريكية فيما بعد. . وقيام الحضارة الأمريكية على أساس أن كل فكرة قابلة للمناقشة مهما كانت مخالفة للمعتقدات السائدة. . وكل رأى قابل للتجريب والحكم عليه بنتائجه العملية، فإذا وصفت أحدًا بأنه «دوجماتيك» أو «دوجماتيكى» فأنت تعنى أنه لا يتمتع بالمرونة الكافية فى التفكير ولا بسعة الأفق التى تساعده على تقبل آراء الآخرين المخالفة لرأيه، وليس على استعداد لأن يرى أية شبهة خطأ فيما يؤمن به من الأفكار وبالتالى: فلن يغيرها حتى ولو أجمع الجميع على خطئها وخطورتها!

ومن حقك إذا وصفك أحد بهذه الصفة أن تنفيها عن نفسك. . لكنه ليس من حقك أن تنفعل وتغضب لها، لسبب بسيط هو أنك إذا فعلت ذلك فسوف تؤكد بانفعالك الصاخب صدق رأيه فيك! أما إذا قال لك أحد إنك «رومانسى» وكثيرًا ما نستخدم هذه العبارة فى أحاديثنا اليومية. . فهو يعنى غالبًا أنك إنسان خيالى أو عاطفى، أما معنى الرومانسية الدقيق فهى نزعة فى جميع فروع الفن ظهرت كرد فعل للفلسفة العقلية، التى سادت أوروبا فى القرن الثامن عشر، تعرف بالعودة للطبيعة وإيثار الحس والعاطفة على العقل والمنطق. .

وهى فى الأدب نزعة تؤمن بأن الإنسان خيِّر بطبعه، لكن المجتمع، الذى يولد فيه هو الذى يفسده وفى الموسيقى والرسم تهتم بالمشاعر دون التقيُّد بالشكل.. أما فى الحياة فتعنى أن يهتم الإنسان بما هو أكثر من طعامه وشرابه وملبسه ومتعه الحسية، وأن يستمتع بالمشاعر العاطفية الرقيقة وبالجمال وجمال الطبيعة والعلاقات الإنسانية، وبكل ما يثرى النفس والحس والعاطفة.

أما إذا وصفت أحدًا بأنه «وسَطى».. فالوسطية هى الإيمان بأن «وسط الشىء خيره وأعدله» وهى ضد التطرف لأن المتطرف يحيد عن وسط الشىء.. إلى طرفه! وقد مدح أعرابى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له:

يَا أوْسطَ النَّاسِ طُرًّا فى مَحَاسِنه

وأكرمَ النَّاسِ أمًّا بَرةً وأبَا

لهذا فالوسطية فضيلة فكرية وخلقية.. والتطرف فى أى شىء حتى فى «المحاسن» رذيلة فكرية وخلقية، وآفة تفتح الباب لشرور عديدة أبسطها أنها تورث صاحبها التحجُّر والجمود حول ما يؤمن به مهما كان ضارًّا أو خاطئًا.

.. وسامحه الله صديقى المتحذلق الذى يهوى استخدام الكلمات الضخمة والمصطلحات الفلسفية.. والذى جرنى دون أن أدرى إلى مثل هذا الحديث!

صندوق الأسرار!

متى بدأت هذه العادة عندي؟ لا أذكر على وجه التحديد، لكن المؤكد أنها قد بدأت في سن مبكرة، فأنا أحتفظ برسائل الأصدقاء لي منذ سن الصبا، ولازالت عندي حتى الآن هذه العلبة المعدنية القديمة التي أحتفظ فيها برسائل الأصدقاء، عندما بدأت أتراسل معهم، حين اغتربت عن مدينتي الصغيرة في سن الـ17، وجئت إلى القاهرة لألتحق بالجامعة.

لكن متى امتلكت هذه العلبة.. ومن أين جئت بها؟ هذا مالا أذكره! أغلب الظن أنها كانت علبة حلوى مستوردة بدليل صورة إمبراطورة النمسا الجميلة «ماريا تريز»، التي كانت مرسومة على غطائها، ومحا الزمن الآن معظم ملامحها.. وبوحي من هذه العادة القديمة، اكتسبت - فيما بعد - الحرص على الاحتفاظ بكل رسالة شخصية لها دلالة معينة أو قيمة معنوية بالنسبة لي، سواء كانت من الأصدقاء القدامى أم الجدد أم الأدباء والمشاهير الذين تعاملت معهم فيما بعد أو من القراء.

تغيرت الدنيا . . ومرت تحت الجسور مياه كثيرة، وانتقلت من مسكن إلى مسكن ومن مرحلة إلى مرحلة من العمر والعلبة القديمة قابعة فى مكانها، تمثل لى عطر السنين، التى ذهبت ولن تعود، وعبق الذكريات، قد تمضى السنوات دون أن تخطر لى ببال . . وقد أتذكرها فجأة فأرجع إليها . . وأعيد قراءة بعض رسائلها وأستعيد أحداثها وشخوصها، وأبتسم أحيانًا للآمال العريضة، التى كانت تداعبنا ولروح التفاؤل والثقة فى الغد التى كانت تغلب علينا . . وأدمع أحيانًا للأحلام التى وُئدت، و«القصص» التى لم تكتمل . . والصحبة التى انفرط عقدهاَ برحيل الأعزاء أو افتراق الأصدقاء، وأقول فى أحيان أخرى مع شاعرى الحبيب إبراهيم ناجى:
آه مما صنع الدهر بنا!

. . هذه الرسائل الأربعة من صديق لى فى مرحلة الدراسة الثانوية يبلغنى فيها بتطورات قصة حب الصبا التى عاصرتها معه . . وطالما وقفت إلى جواره فى الموقع «الاستراتيجى»، الذى كان يحتله ظهر كل يوم ليرقب منه فتاته وهى عائدة مع صديقة لها من مدرستها، تحمل كتبها على صدرها وتخفض رأسها حين تمر بنا بتأثير الانفعال الباطنى بوجود الآخر فى الجوار . . وطالما استجبت لرغبته فى «الطواف» فى المساء حول بيتها على الرغم من علمه بأنها لن تراه ولن تطل عليه من النافذة . . ومع ذلك يصر كل مساء على أن يدور حوله . . ويسميه «الكعبة» ومع أنه لم تكن له أية اهتمامات

أدبية أو شاعرية، فلقد دهشت فيما بعد حين قرأت ديوان إبراهيم ناجى، فوجدته فى قصيدته الجميلة «العودة» يسمى بيت الحبيبة أيضًا بـ «الكعبة». . ويقول متحسرًا حين عاد إليه بعد فترة من الزمن، فوجد حاله قد تغيَّر:

هذه الكعْبةُ كُنَّا طَائفيهَا والمُصَلّين صَبَاحًا ومَسَاءَ

كَمْ سَجدنَا وعَبَدنَا الحسْنَ فيهَا .. كيفَ باللّهِ رَجَعنَا غُربَاءَ

والأعجب هو أن هذا الحب الطفولى شبه الصامت قد صمد للزمن واستقر فى أعماق الطرفين، وتوقفت التلميذة الصغيرة عن الدراسة بعد المرحلة الثانوية، وقبعت فى بيتها تنتظر الفتى، الذى كان يترصدها كل يوم عند خروجها من المدرسة، وترفض من أجله كل من يتقدم لها إلى أن تخرج من كليته وتقدم لها وتوج قصة حب الصبا بالزواج وزرته فى بيته منذ سنوات ودخلتْ علينا زوجته الصالون باسمة ومرحبة، فغامت الرؤية أمام عينى ورأيتها بعين الخيال فى مريلة المدرسة الزرقاء تحمل كتبها. . وتحنى رأسها حين تعبر بنا منذ زمن بعيد. وسألت صديقى عن «أحوال القلب» بعد كل هذه السنين فأجابنى صادقًا: مازلت أحب هذه «المرأة» كما كنت أحبها وأنا أقف إلى جوارك على ناصية المدرسة أنتظر مرور موكبها «الملكى» كل يوم!

أما قصص حب الصبا الأخرى التى تناولتها الرسائل فلم تكتمل. . ولم تصمد للزمن، وعرفت القلوب الغضة جرح الألم

فى سن مبكرة . . ثم اندملت الجروح بعد فترة من الزمن، لكنها تركت فى قلوب البعض ندوبًا قديمة لم تعد تؤلم لكنها أيضًا لا تنمحى!

ومن بين كل ما قرأت ـ فيما بعد ـ عن إحساس المصدوم فى حبه وأحلامه توقفت أمام هذا الإحساس الذى يصوره الشاعر الفرنسى شارل بودلير حين يسأل من يحبها فى صمت:

أيها الملاك الطروب . . هل عرفت الألم . . والهوان والسأم . . والبكاء والندم؟

كأنما يقول لها إذا كنت قد عرفت كل ذلك . . فلقد عرفت بعض ما أعانيه الآن . . وإن كنت لم تعرفيه فلن تحسِّى أبدًا بقسوة ما أعانيه من عذابات بسببك؟ أغوص فى أعماق صندوق الذكريات، فتخرج يدى بهذه الرسائل القديمة وأتأمل خطها بحنين غريب . . إنه خط أبى - رَحمه الله - فى رسائله القصيرة لى حين فارقته لأول مرة وجئت إلى المدينة الكبيرة، ألاحظ الآن متأملاً ومتعجبًا أنه كان يصر على أن يكتب اسمى على غلاف الرسالة هكذا: ولدنا «الأستاذ» فلان! احترامًا لابنه الشاب أمام عين موزع البريد الذى سيحمل رسالته إلى، فإذا فضضت الغلاف وجدته يتحرر من هذا الالتزام الأدبى ويبدأ رسالته لى بعبارة: «ولدنا فلان»، وأعيد قراءة الرسائل فترن فى أذنى كلمة «ولدنا» رنينًا حبيبًا . . وأجد فيها اختصارًا لمعان

عديدة من الحب والمسئولية الأبوية . . والتحفظ أيضًا . . فهو لم يكتب لي قطُّ عبارة من نوع : ابني الحبيب أو ابني الغالي أو العزيز إلى آخره، وإنما اكتفى بهذه الكلمة العبقرية التي تختزل كل هذه المعاني، ولا تخرج على طبيعة الآباء في زمنه في عدم المغالاة في التعبير عن مشاعرهم العاطفية تجاه أبنائهم بالكلمات .

وأتعجب الآن حين أقرأ هذه الرسائل فلا أجدها مثقلة بالنصائح والتحذيرات . . وإنما بروح الثقة في التزامي وتقديري للمسئولية، كأنما قد عرف بحكمته الفطرية أن تكرار النصائح المباشرة يورث الملل، وأن الشك بلا مبرر في الأعزاء قد يدفعهم أحيانًا للانحراف ما داموا متهمين في نظر الأباء دائمًا، سواء التزموا أم انحرفوا، وكأنهم بذلك يقولون لأنفسهم : ما دمنا لن ننجو من الاتهام بما لم نفعل، فلنفعله إذًا حتى لا نحرم أنفسنا من الأمرين معًا : المتعة المحرمة . . والثقة!

تذكرت الآن، وأنا أكتب هذا المقال، قصة طريفة رواها الدكتور سيد أبو النجا في كتابه الممتع «ذكريات عارية» . . لقد دخل عليه الساعي حين كان يعمل في بداية حياته مدرسًا بمدرسة التجارة المتوسطة وسلمه رسالة وهو يبتسم، ونظر د . أبو النجا إليها ففهم سر ابتسامة الساعي .

فقد كانت الرسالة من أبيه، وقد كتب على غلافها: مدرسة التجارة «الدنيا» بالظاهر.. إلى «فلان» المعلم بالمدرسة، وقد كتب الأب اسم ابنه غير مسبوق بلقب الأستاذ أو متبوع بلقب أفندى، كما كان العرف السائد وقتها؛ لأن الأبوة تقتضى فى نظره تجريد الأبناء من ألقابهم عند الكتابة إليهم، وكتب كلمة المعلم بدلاً من المدرس اقتداء بشوقى فى «قف للمعلم وفه التبجيلا»، وكتب التجارة «الدنيا»؛ لأن هناك مدرسة التجارة العليا.. وبالتالى فلابد أن تكون هذه هى «الدنيا»، حتى اضطرّ د. أبو النجا أن يطلب من خاله أن يلفت نظر أبيه إلى مراعاة وضعه الجديد بين زملائه حين يكتب إليه!

أما هذه الرسالة، فما من مرة قرأتها إلاّ وأثارت شجونى وحرَّكت فىَّ مشاعر عديدة، إنها من شقيقى الأكبر - رحمه الله - وقد كان رفيق طفولتى وصباى وتزاملنا فى المدرسة الثانوية مع أنه يكبرنى بعامين.. وحصلنا على الثانوية العامة فى سنة واحدة، ثم توقف هو عن الدراسة ليساعد أباه فى تجارته، والتحقت أنا بجامعة القاهرة وافترقنا فتواصلت الرسائل بيننا، يحكى لى عن حياته.. وأروى له عن حياتى الجديدة وزملاء الجامعة الجدد، وفضفضت معه ذات مرة عن أن المبلغ الشهرى الذى يرسله لى أبى يكفينى، لكنه لا يتبقى منه، بعد متطلبات الحياة الكثيرة لأشبع به رغبتى

المحمومة فى شراء الكتب، التى حلمت منذ الصبا بشرائها من سور الأزبكية القديم، فرد علىَّ برسالة داخلها مبلغ جنيه اقتطعه من مصروفه الشخصى لأشترى به ما أحب من كتب مع أنى لم أطلب منه ذلك. . ولم أشك له حاجتى إلى النقود، لكنها المشاعر الأخوية الصادقة، ولقد مضت السنوات وتخرجت وعملت وعرفت الكسب فلم يكن لأكبر مبلغ قبضته فى حياتى ما كان لهذا «الجنيه» من أثر فى نفسى ولا فى وجدانى. . بل ولا فى تكوينى الثقافى؛ إذ مازال فى مكتبتى حتى الآن بعض الكتب التى اشتريتها من سور الأزبكية بهذه «الثروة» الإضافية.

. . علاقة الحب بين الأشقاء تأسرنى دائمًا، وأرى فيها صدوعًا للأمر الإلهى بالتراحم والمودة بين أبناء الرحم الواحد. . وفى قراءاتى. . فيما بعد - كثيراً ما توقفت أمام رسائل الأشقاء فى قصص حياة الأعلام والمفكرين وعنيت بتتبع هذه العلاقة بينهم وسعدت بالعلاقات الحميمة منها وكرهت العلاقات الفاسدة منها.

وتأملت طويلاً رسالة كتبها أمير القصة القصيرة أنطوان تشيكوف وهو فى الـ19 من عمره لشقيقه ميخائيل البالغ من العمر 14 سنة، ردّا على رسالته فقال له: «إن خطك جميل ولم أعثر فى خطابك على غلطة نحوية واحدة لكن شيئًا واحداً لم يعجبنى فيه. . هو لماذا وقعت رسالتك بإمضاء «أخوك التافه الذى لا شأن له». . هل تعتقد

حقًا أنه لا شأن لك بين الناس؟ إن الناس يختلفون يا أخى ميشا، لكنك يجب أن تتعلم كيف تحتفظ بكرامتك بينهم، إنك إنسان شريف. . أليس كذلك. . إذًا فلتحمل لنفسك من الاحترام ما هو جدير بإنسان شريف، وتتعلم أن الإنسان الشريف لا يمكن أن يكون تافه الشأن أبدًا».

- وبنفس اهتمامى برسائل الأشقاء، أشغف برسائل أصدقاء العمر وما تعكسه من حب صادق ومودة تتحدى الزمن. . وفى علبتى المعدنية القديمة كثير منها، لكن من أطرفها رسائل صديقيى أنهينا دراستنا الثانوية معًا، واتجها هما إلى مدينة الإسكندرية للالتحاق بجامعتها، واتجهت أنا إلى القاهرة وربطت الرسائل والزيارات بيننا، وكانت رسائلهما إلىَّ سلسلة من المعابثات والمكايدات من كل منهما للآخر والاحتكام إلىَّ لتحديد من المخطئ ومن المصيب. . وقد تشاركا دائمًا فى السكن وانتقلا معا من شقة إلى شقة، ولم تتوقف مكايدتهما لبعضهما البعض ولم تتوقف صداقتهما المخلصة على الرغم من ذلك يومًا واحدًا.

وحين قضت عليهما ظروف الحياة بعد التخرج بالافتراق، وفض شركتهما، واضطر أحدهما للانتقال إلى مدينة أخرى بعيدة، أحس كل منهما بأنه ضائع فى الحياة وأخفى مشاعر حزنه وراء التظاهر بالارتياح للتخلص من رفقة الآخر ومكايده. . ثم خط كل منهما

إليَّ رسالة «سرية» يصف فيها مشاعره الحقيقية، وحزنه لفراق صديق العمر . . فلم أفعل أكثر من أن أطلعت كل منهما على رسالة الآخر . . وذكرني موقفهما عند الفراق . . بموقف الأديب الروسي العظيم ديستويفسكي حين كان محكومًا عليه بالنفي في سيبيريا ويعمل جنديّا بسيطًا محرومًا من نشر كتبه ومن مغادرة المنفي، ثم صدر القرار بنقل صديقه الوحيد، الذي يأنس إليه القاضي فرانجل إلى مدينة أخرى، فغرق ديستويفسكي في حزن موحش، وفي يوم الفراق ظل الصديقان يرتبان حقائب السفر دون أن يتبادلا كلمة واحدة، ثم تعانقا والدموع تبلل وجهيهما وتعاهدا ألا ينسى أحدهما الآخر ثم ركب فرانجل العربة، وقبل صديقه للمرة الأخيرة وتحركت العربة وسارت فترة طويلة، ثم خطر له أن يلتفت وراءه . . فرأى صديقه واقفًا في ضوء الغروب الشاحب كشبح حزين يلفه ضباب الحيرة والأسى!

ووصف فرانجل الموقف فيما بعد «كان الفراق مريراً . . فقد كنت حينئذ شابّا ممتلئًا بالآمال في المستقبل الواعد . . بينما كان الكاتب العظيم الموهوب محكومًا عليه بأن يفقد صديقه الوحيد ويبقى في هذه البقعة الموحشة مريضًا وحيداً في ثياب جندي بسيط».

لكن فرانجل لم ينس صديقه الذي خلفه وراءه في الفيافي الموحشة وإنما سعى من خلال معارفه من النبلاء إلى أن صدر قرار

بالعفو عن صديقه والسماح له بالإقامة فى موسكو، ثم بطرسبرج، وعادتت مودة القلب الصافية تجمع بين الصديقين.

. . . .

وما أكثر ما جمعت الدنيا بيننا وبين أعزاء القلب والروح، وما أكثر ما فرقت بيننا وبينهم.. بالرحيل إلى مدن ودول أخرى أو بالرحيل الأبدى إلى العالم الأفضل.. فلم يبق ممن رحلوا إلى هنا أو هناك سوى ما تركوه فى وجدان المرء من أثر ومن ذكريات.. ولم يبق من بعضهم سوى هذه الرسائل القديمة التى أحتفظ بها حتى الآن فى علبتها المعدنية.. وقد أرجع إليها من حين إلى آخر، فأستروح فيها عبير الذكريات وأيامها الجميلة، وقد تهيج مشاعر الأسى فى نفسى، فأقول مع شاعرى الرقيق إبراهيم ناجى:

رَفْرَفَ القَلْبُ بِجَنْبِى كَالذَّبِيحِ   وَأنا أَهْتِفُ يَا قَلْبُ اتْئِدْ
فَيُجِيبُ الدَّمْعُ والمَاضِى الجَرِيحُ   لِمَ عُدْنَا.. لَيْتَ أَنَّا لَمْ نَعُدْ

المشـــهد الأخـــير !

هذه هواية أخرى من هواياتى الأدبية الغريبة !

إننى أهوى قراءة كتب التراجم التى تؤرخ لحياة أعلام الفكر والأدب والتاريخ، وأتتبع بشغف سعيهم الدءوب لإثبات ذواتهم، وأحس بالفخر لهم حين ينالون الاعتراف بمكانتهم. . ثم أصل إلى الصفحات الأخيرة من قصص حياتهم. . فأبطئ من سرعة القراءة كأنى لا أريد أن تنتهى صحبتى لهم. . ويجىء المشهد الأخير فأحس مشفقًا بأن ساعة إنزال العلم عن ساريته قد دنت. . وتتردد فى مسامعى أنغام الوداع الحزينة. . ثم أفيق بعد لحظات من جمودى، فأعيد قراءة المشهد الأخير أكثر من مرة. . وتنحفر فى ذاكرتى تفاصيل أيامهم وكلماتهم الأخيرة.

هواية تثير الاكتئاب؟ ربما تكون كذلك، لكن لا حيلة لى فيها، فقد تملكتنى منذ سنوات طويلة وقضى الأمر، وخلّفت فى أوراقى سطورًا عديدة، سجلت فيها كلمات هؤلاء الأعلام الأخيرة ونشيدهم الختامى وهم يودعون الحياة. . فهل تحب مشاركتى فيها؟

إن **العقاد العظيم** ـ مثلاً ـ مرض بالقلب فى أيامه الأخيرة، وظل مصرّاً على أنه مريض بالمصران الغليظ وليس بالقلب وفشل الأطباء فى إقناعه بدخول المستشفى . . وألح عليه تلاميذه فى ذلك كثيراً كما روى الأستاذ أنيس منصور فى كتابه الممتع «فى صالون العقاد»، فقال بشموخ غريب لأحدهم مستنكراً هذه الرغبة: هل تظنني أريد الحياة؟ . . إن الحياة التى لا تريد العقاد، فإن العقاد لا يريدها! وبقى على عناده يرفض الانتقال إلى المستشفى، ثم ساءت حالته . . وازداد ضعفًا، وأراد بعد أيام أن يكتب شيئًا لعله كان وصية أدبية أو كلمة وداع أخيرة للحياة، ففوجئ بالقلم يهتز فى يده المرتجفة . . واكتأب لذلك، وقال لمن حوله: الآن فقط عرفت أنى قد مت . . فهذا القلم لم يهتز فى يدى قط . . وقد عشت حياتى أعمل لهدف واحد هو أن يبقى ثابتًا لا يهتز . . فإذا كان قد اهتز الآن . . إذًا فلقد مات العقاد! وبعد أيام قليلة نهض من فراشه . . وجاء بالمصحف من مكتبه ووضعه على وسادته . . ثم تراخت قواه فجأة ومال على جانبه الأيمن . . وأسرع إليه أقرباؤه . . ثم جاء الطبيب، لكن نهاية العملاق كانت قد حانت، وانطوت صفحة حياته الحافلة بالإبداع والفكر والشموخ.

والشاعر الألمانى العظيم جوته (1749 - 1832) دفع مقابل هبة طول العمر ثمنًا بالغ الفداحة هو الوحدة . . فمات صديقه الأثير

الشاعر شيللر، بعد صداقة نادرة استمرت 11 عامًا فقط، ووصفها مؤرخو الأدب بأنها كانت صداقة عجيبة بين «نصف إله» هو جوته «ونصف ميت» هو شيللر الذى كان قد استأصل إحدى رئتيه، ثم فقد بعده أخته، ثم زوجته وأخيراً ولده. . لكن طول العمر قد أتاح له من ناحية أخرى أن يتم معجزته الأدبية «فاوست» التى كتب نصفها الأول فى 30 سنة، وكتب النصف الآخر فى 25 سنة، ثم أعد له معجبوه احتفالاً كبيراً بعيد ميلاده الـ82 . . ففر من حضوره إلى الجبل وأقام فى كوخ صغير كان يلجأ إليه من حين لآخر طلبًا للهدوء . . فرأى على أحد جدرانه بضعة أبيات من الشعر كتبها عليه بقلم رصاص منذ سنوات طويلة .

«فوق قمم التلال يرفرف السلام هادئًا .

فوق رءوس الأشجار سكنت الأوراق وادعة .

وخفتت أصوات الطيور الصغيرة فى سكون . . فصبراً . . . صبراً . . فعما قليل سوف تستريح أنت أيضًا !»

وقرأ الأبيات، فدمعت عيناه . . وردد لنفسه الشطرة الأخيرة مكتئبًا : عما قليل سوف تستريح أنت أيضًا . . ونزل من الجبل عائداً إلى بيته وظل لأيام عديدة يترنم بهذه العبارة لنفسه . . إلى أن استرخت جفونه ذات يوم . . وكان آخر ما سمعه منه خدمه، هو : «مزيداً من النور» . . فلم تتحقق الأمنية . . ولم ير بعدها إلا الظلام .

وحين مات جوته، كان أديب إنجليزى عظيم هو السير **والتر سكوت** (1771 - 1832) يبحر فوق ظهر طرادة حربية فى رحلة استشفاء رتبها له أصدقاؤه.. وساهمت فيها البحرية البريطانية بتقديم هذه الطرادة لتقله إلى البحار الجنوبية عسى أن تساعده حرارة الشمس فى الجنوب على استعادة صحته، فاكتأب لموت جوته وقطع الرحلة وصمم على العودة ليموت فى وطنه مثله.

وبعد حياة أدبية مثمرة بدأت بأن احترف الأدب لكى يساعد صديقًا له يملك مطبعة، فكان أن قدم ديوانه الأول للناشر، واشترط عليه أن يطبعه فى مطبعة صديقه، ثم شارك صديقه فى المطبعة استجابة لرجائه، وتراكمت عليه خسائرها، وبدأ مجده الأدبى الحقيقى بإفلاسه؛ إذ راحت يده تكتب بلا توقف ليسدد ديونه الكثيرة.. بعد هذه الحياة المشحونة، أوى إلى بيته ضعيفًا هزيلاً.. وطلب من أصدقائه أن يجلسوه إلى مكتبه ويضعوا القلم فى يده، فعجز عن الإمساك به، وسلم باليأس من المحاولة، فأعيد إلى فراشه وظل به شهرين إلى أن مات مودعًا بالحب والدموع من كل من عرفوه.

أما الموسيقار العبقرى **فولفجانج موزار** (1756 - 1790).. فقد احترقت شمعة حياته سريعًا وعمره 34 عامًا فقط، كتب خلالها أولى سيمفونياته وهو فى الـ8 من عمره، وأولى أوبراته وهو فى الـ11، وعاش رغم وفرة إنتاجه وعبقريته غارقًا فى الديون

والمشاكل، ثم زاره ذات مساء فى بيته بمدينة سالزبورج النمساوية رجل غامض يرتدى السواد، وطلب منه أن يؤلف له نشيدًا جنائزيًّا مقابل أى مبلغ يريده وسلمه مقدم الثمن واختفى دون أن يصرح باسمه، وبدأ موزار كتابة النشيد ومن حين إلى آخر يأتى إليه الرجل الغامض فى ملابسه السوداء فيحصل منه على ما كتب ويسلمه جزءًا من الثمن وينصرف دون كلام. . حتى استقر فى وجدان موزار المضطرب أن هذا الرجل ليس من البشر وإنما هو مندوب من العالم الآخر.

وذات يوم كان موزار فى بيته يواصل العمل فى هذا النشيد وحيدًا بعد أن تركته زوجته ضيقًا بعناء الحياة والديون، ووصل فى تلحينه إلى الفقرة التى تقول: حزين ذلك اليوم. . فانفجر فجأة فى البكاء وعجز عن استكمالها. . وفى مساء نفس اليوم مات موزار العبقرى وحيدًا مفلسًا، وتكشفت بعد رحيله حقيقة ذلك الرجل الغامض مندوب العالم الآخر، وتبين أنه مندوب لرجل ثرى كان يدعى تأليف الموسيقى ويرسل مندوبه هذا لشراء المؤلفات سرًّا من الموسيقيين، وقد احتاج إلى هذا النشيد الحزين ليرثى به زوجته التى رحلت منذ أسابيع!

والخليفة المعتصم العباسى. . تحقق له من النصر والفوز مالم يتحقق لأحد قبله، فغزا الروم وفتح عمورية، ووقف ببابه من الملوك

الأسرى الذين هزمتهم جيوشه مالم يقف بباب خليفة من قبل، ومد رقعة ملكه إلى حيث لم يصل إليه ملك أحد من سابقيه، وكان ملتهب الإرادة قوى الجسم حتى لقد كان - كما قال المؤرخون - يكسر زند الرجل بإصبعيه! وفى ذروة مجده وعنفوان قوته سقط مريضًا قبل أن يتم الـ45 من عمره، وأحس أنها النهاية فتلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾*. واحتضر فقال متحسرًا: ذهبت الحيلة فليس حيلة، ثم ناجى ربه بإحساس من يشعر بثقل الحساب ولا يفقد الأمل فى رحمة من وسعت رحمته كل شىء: اللهم إنك تعلم أنى أخافك من قبلى ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلى، ثم مات يداعبه الأمل فى عفو ربه.

أما الأديب الفرنسى العظيم **فيكتور هوجو** .. فقد أمضى أعوامه الأخيرة فى بيته بالشارع الذى يحمل اسمه الآن فى باريس يستقبل ضيوفه الكثيرين وتلاميذه ومعجبيه، وزاره الكاتب الفرنسى رومان رولان فكتب يصفه: كان يبدو عجوزًا، أبيض الشعر، غائر العينين، وخُيِّلَ إلىَّ حين رأيته أنه خارج لتوه من أعماق الزمن.

وقبل رحيله، أكثر من الحديث عن إحساسه بأنه على وشك الموت، وقال لزواره: يا له من شىء عظيم أن ألتقى بالله.. إننى أفكر كثيرًا فيما سأقول بين يديه وأحاول أن أستعد جيدًا لذلك! وقبل إسدال الستار الأخير على ملحمة حياته الحافلة بالمجد

---

* الأنعام: 44.

الأدبى . . والألم والمعاناة الشخصية ، حتى قال عن نفسه أنه نبى الألم ، التفت فجأة إلى حفيده الصغير جورج وقال له : الحب . . الحب . . ابحث عن الحب ، وامنح السرور لغيرك ، واحصل على السرور ممن تحب . . وبأقصى ما تستطيع !

وفى أحد أيام مايو 1885 ، أصيب باحتقان فى الرئة ونظر إلى من حوله بعينين غائبتين ، ثم قال : إننى أرى نورًا أسود ! ومات فى نفس اليوم وفتحوا وصيته فوجدوه قد أوصى للفقراء بـ 50 ألف فرنك ، وبأن يدفن فى مدافن الفقراء ، فنفذوا الجزء الأول من الوصية ، وأهدر البرلمان الجزء الثانى منها ودفنوه فى مقابر العظماء .

ومات **الفيلسوف سقراط** «469 – 399 ق . م» بين تلاميذه وهم يبكون ويولولون . . فيفيق هو من غيبوبته للحظات لينهرهم على بكائهم ، ثم يعود إلى العدم ، لقد قضت عليه محكمة مكونة من 502 من النوتية والتجار بالإعدام بأغلبية ضئيلة بتهمة إنكار آلهة أثينا . . وإفساد عقول الشباب ، وقدموا له السم فى سجنه فتناوله بثبات ورفض قبول تدبير تلاميذه لتهريبه من السجن برشوة الحراس مستنكرًا فكرة الفرار من تحمل الإنسان لمسئولية أفكاره وأعماله ، ولو كان الموت هو المصير ، وكان آخر ما قاله أن التفت إلى أحد تلاميذه كأنما تذكَّر واجبًا لا يصح أن يغادر الحياة قبل أدائه وقال له : يا قريطون . . إننى مدين بدين لاسكيوبيولاس ، فرده إليه ولا تهمل ! ثم أغلق عينيه . . بعد أن فتح عقول البشر وغرس فيها مئات التساؤلات عن معانى الحق والخير والعدل والجمال .

ولم يمت الأديب الروسى العظيم **ليو تولستوى** «1828 - 1910» بين تلاميذه كسقراط . . وإنما مات فى فناء محطة من محطات السكة الحديد، فقد غادر بيته هربًا من الشقاء، الذى يخيِّم عليه بعد أن وزع أراضيه على الفلاحين وكثرت انتقادات زوجته وأبنائه له، فهام على وجهه ينتقل من قرية، إلى قرية باحثًا عن السلام الذى كرَّس حياته للدعوة إليه، ثم سقط على الأرض بعد 11 يومًا فى فناء إحدى المحطات، وكان آخر ما قاله محدِّثًا الطبيب، الذى يحاول إنقاذه: إن فى العالم ملايين من البشر يتوجعون . . فلماذا تهتم بى وحدى؟

ومازال مشهد قتل الخليفة الثالث **عثمان بن عفان** يثير شجونى كلما رجعت إليه، فقد قتل - رضوان الله عليه - وهو صائم والمصحف بين يديه يقرأ فيه، ودخل عليه محمد بن أبى بكر ومعه رجلان من الثائرين على الخليفة الشهيد، الذين حاصروا بيته 49 يومًا، فأمسك محمد بلحيته فلم يزد ذو النورين عن أن قال له بحزن: لو رآك أبوك «أبو بكر الصديق» لساءه مكانك! فارتجف محمد وتراخت قبضته واستدار خارجًا عادلاً عن إيذائه، لكن الرجلين الآخرين تخلفا عنه دون أن يشعر، وقتلاه بلا رحمة وسالت دماؤه الزكية على أوراق مصحفه.

أما من أضحكنى حتى فى المشهد الأخير من حياته، فلم يكن من أعلام الأدب أو الفكر أو التاريخ، وإنما كان شابًا من معارفى لم يكن

ينجو شيء في الحياة من سخريته اللاذعة كأنما قد خلق ليضحك من كل شيء، ومن كل موقف وفي أحرج اللحظات حتى كان ذووه يمنعونه من ارتياد سرادقات العزاء حتى لا يثير المشاكل إذا غلبته طبيعته الساخرة العجيبة، ثم أصيب الشاب الضاحك دومًا في حادث تصادم مؤلم ونقل إلى المستشفى في حالة خطيرة، والتف حول فراشه أصدقاؤه وهو غائب عن الوعي.. فتنبه إليهم بعد قليل وطاف بعينيه يستعرض وجوههم، ثم توقف باسمًا أمام أحدهم وناداه بصوت ضعيف: يا فلان؟ وأجابه على الفور بحنان: نعم.. فإذا به يقول له بنفس الصوت الضعيف الواهن: يحموك في كنكة! وانفجر أصحابه ضاحكين.. لكن الضحكة ماتت على شفاهم بعد لحظات حين اكتشفوا أن صديقهم قد مات، وهم يضحكون على قفشته الأخيرة!

ومازال في أوراقي الكثير من السطور التي سجلت بها ما اجتذب اهتمامي في المشاهد الأخيرة من حياة أعلام الفكر والتاريخ.. فهل تريد منها المزيد؟ لا أظن.. إذًا فعفواً لما أثرته في نفسك من تأملات وشجون بإشراكي لك دون إذنك في هذه الهواية الكئيبة!

نتيجة « محرجة » !!

أتعبتنى بحق هذه الهواية . . فأنا من هواة زيارة بيوت أو متاحف العظماء من رجال الفكر والسياسة ، فإن لم أهتد إليها خلال زيارتى لدولهم بحثت عن تماثيلهم فى الميادين والشوارع ، بل ومقابرهم أحيانًا ، وأتجمد أمامها لفترات طويلة أسترجع خلالها فى ذاكرتى قصص حياتهم ، وأكاد أتخيلهم وهم يقرأون ويكتبون ويعملون ويمارسون هواياتهم ، وأتعجب أحيانًا لبعض عاداتهم وأعجب دائمًا بقوة إرادتهم وجلدهم على العمل ، وأخرج من زياراتى وقراءاتى لقصص حياتهم فى كل مرة برأى محدد هو أن العبقرية هى دائمًا . . ثمرة العناء!

ومنذ سنوات دعيت لزيارة فنلندا . وكان برنامجى حافلاً بلقاءات عديدة مع رجال السياسة والاقتصاد ، فطلبت من مرافقى أن يرتب لى زيارة لبيت موسيقارهم العظيم **سيبليوس** (1865 - 1957) ، الذى تفتننى أعماله خاصة سيمفونية «فنلنديا» ففوجئ المرافق بالطلب ، ثم اعتذر عن عدم تلبيته ببعد المكان وضيق الوقت ،

ولاحظ أسفي، فاصطحبني بين موعدين لزيارة بيت مهندس معماري يعتبرونه من عظمائهم بابتكاراته المعمارية، فتبعته متحمسًا، ووجدت البيت فيللا واسعة يزورها السياح ويشرح لهم المرشد عبقرية تصميمه على مستويات مختلفة بحيث يبدو وكأنه من عدة أدوار في حين أنه من دور واحد، ولم يلفت نظرى شيء من ذلك، وإنما لفت نظرى أن حمام البيت به حوضان متجاوران لغسل الوجه، فسألت المرشد عنهما، فابتسم للملاحظة وقال لى وللسياح إن المهندس العبقرى كان له 9 أبناء صغار يتزاحمون فى الصباح على الحوض لغسل وجوههم وأسنانهم، فابتكر هذه الفكرة حتى لا يتأخروا عن موعد المدرسة، وأصبحت من بعده تقليداً تنفذه العائلات الكبيرة العدد!

وفى باريس تخبطت طويلاً بين الشوارع بلا مرشد ولا دليل بحثًا عن بيت الروائى العبقرى **أنوريه دى بلزاك** (1799 – 1850) إلى أن عثرت عليه وطفت بحجراته وتأملت المائدة التى كان يكتب عليها إلى جوار فراشه.. وتمثال نابليون الذى يضعه فوق المدفأة.. ويتأمله كثيراً، ثم يكتب فى أوراقه:

ما بدأه نابليون بحد السيف.. سوف أتمه أنا بسن القلم!

يقصد ما بدأه من أمجاد لنفسه ولبلاده.. ولتحقيق طموحه هذا، ظل يكتب ويكتب بلا انقطاع، ويصحو من نومه فى الـ2 صباحًا، فيظل يكتب حتى مساء اليوم التالى، ويسرف فى احتساء كميات كبيرة من القهوة

السوداء ليظل منتبهًا حتى قتله الإجهاد والقهوة السوداء فى الـ51 من عمره.

وفى سالزبورج بالنمسا دخت الدوخات السبع حتى عثرت على بيت الموسيقار العبقرى «**موزار**» (1756 - 1791)، الذى كتب أول سيمفونية له وهو فى الـ8 من عمره وتأملته طويلاً وتخيلت حياة صاحبه المعذب بالبؤس والديون ووحدة الشعور داخله حتى مات فيه وهو فى الـ35 من عمره، وتركته وأصداء أنغامه الجميلة ترن فى أذنى.

وفى فيينا، بحثت طويلاً عن بيت «**سيجموند فرويد**» مؤسس مدرسة التحليل النفسى (1856-1939) الذى تركت مؤلفاته أثرًا باقيًا فى علم النفس والأدب والفن، واهتديت إليه بعد طول عناء، لكنى وجدته مغلقًا فى عطلة ذلك اليوم وكان موعد سفرى بعد ساعات قليلة فأسفت لفوات فرصة أن أرى بيت الرجل الذى كشف الكثير من أسرار النفس البشرية الغامضة.

وفى مدينة ستراتفورد بإنجلترا، زرت بيت **شكسبير العظيم**.. وتأملت محتوياته من أدوات المطبخ إلى مائدة الكتابة فى غرفة النوم إلى نماذج مخطوطاته المعلقة على الجدران.

وفى مقبرة العظماء «البانثيون» بباريس، التى تنقل إليها فرنسا رفات كل عظمائها فى كل المجالات شاهدت مقبرة الروائى العظيم فيكتور هوجو (1885)، التى نقلوه إليها رغم وصيته بألا يدفن فيها فأهملوا وصيته، لأن العظماء ليسوا ملكًا لأنفسهم وإنما لبلادهم

وللتاريخ . . وتأملت طويلاً مقابر فولتير وجان روسو وديدرو . . وكل المفكرين والعباقرة الذين قرأت عنهم وأحببتهم .

أما تماثيل العظماء فأنا دائم البحث عنها فى كل مدينة أزورها فى الخارج ، وكثيراً ما أسأل المارة عن دور صاحب التمثال الذى أقف أمامه فى تاريخ بلادهم إذا كنت لا أعرفه . . فأفاجأ فى كثير من الأحيان بأنهم لا يعرفون عنه أكثر من اسمه المحفور على قاعدة التمثال ، وألجأ غالبًا إلى مكتب هيئة السياحة فى المدينة . . لأجد إجابة على أسئلتى الحائرة والمحيِّرة لى قبل غيرى دائمًا .

وقد حرصت على الوقوف أمام تمثال **ونستون تشرشل** رئيس وزراء بريطانيا العتيد ، الذى قاد بلاده إلى النصر فى الحرب العالمية الثانية ، لكنى لم أستطع العثور على بيته القديم فى «تشارنوبل» لأرى السور الذى بناه بالطوب الأحمر بيديه حوله ، فلقد كان من هوايات هذا السياسى الداهية الرسم بالزيت . . وبناء الجدران . . ومتابعة سباق الخيل !

وقد سئل بعد الحرب كيف استطاع أن يقود بلاده للنصر فى وجه الاكتساح الرهيب للقوات الألمانية ، التى احتلت معظم دول أوروبا فى بداية الحرب ، فأجاب بهدوء : بالنوم لمدة ساعة واحدة بعد الظهر !

يقصد من ذلك أنه كان يجيد تنظيم وقته، ويعمل أكثر من 15 ساعة في اليوم، لكنه يحرص على أن يقطع ساعات عمله بساعة للاسترخاء في الظهر ليجدد قواه ويحتفظ بصفاء تفكيره فلا يتخذ قرارًا خاطئًا تحت تأثير الإعياء والإجهاد. . ولم تكن هذه وحدها سر عبقريته، فلقد كان حاد الذكاء، مثقفًا ثقافة رفيعة، وقارئًا جيدًا للتاريخ ومعجبًا على وجه الخصوص بنابليون. . وكان، وهو الأهم هادئ الأعصاب. . إلى حد البرود، في أصعب المواقف، وقادرًا على تقبل آراء الآخرين. . واحترام من يخالفونه في الرأى والاستفادة بالمنطقى منها. . ومن كل ذلك تجمعت مؤهلاته التى حققت له مجده السياسى.

وعلى النقيض منه كان **خصمه اللدود هتلر** (1889ـ1945) زعيم ألمانيا النازية، الذى لم أبحث عن بيته ولا عن مقبرته فى زياراتى لألمانيا، لأن قوات الحلفاء دمرت المخبأ الذى كان يعيش فيه، ولأن بلاده لا تحتفظ له بأى أثر، وتريد أن تنسى كل ما يذكرها به، ثم أخيرًا لأنه انتحر بعد هزيمته مع صديقته إيفا براون التى تزوجها قبل انتحارهما معًا بيوم واحد ليموتا زوجين، وأوصى مساعديه بحرق جثمانيهما حتى لا يقعا فى أيدى الأعداء! وقد كان محدود الثقافة، نارى الطبع، ديكتاتوريًا لا يقبل أى مراجعة. . أو معارضة، ولا يتحدث إلى مساعديه إلا صارخًا أو متوعدًا، ويقضى حياته بين الاجتماعات مع مساعديه وقواده. . أو فى اجتماعات عامة يلقى

فيها خطبه النارية التشنجية . . أو يعيش منعزلاً مع صديقته فى بيته الصغير فوق قمة جبل قريب من برلين أسماه «عش النسر» ، لأن النسور تبنى أعشاشها فوق قمم الجبال . . أما **نابليون** (1769-1821) ، فلم أزره فى مقبرة العظماء . . فى باريس . . وإنما فى مبنى الأنفاليد المخصص له فى قلب المدينة ، ولاحظت أن سيل زواره من السياح والفرنسيين الذين يعشقون زيارة المتاحف لا ينقطع صيفًا أو شتاءً ، واسترجعت أمام مقبرته كل ما قرأته عنه ، لكنى توقفت أمام رسالة بعث بها إلى أمه وهو مازال ضابطًا صغيرًا مرشحًا للمجد يصف حياته فيقول :

«اذهب إلى فراشى فى الـ10 مساء ، وأصحو فى الـ4 صباحًا ، ولا أزيد عن وجبة طعام واحدة أتناولها فى الـ3 بعد الظهر» !

وبهذه السطور القليلة ، لخص نابليون بعض أسباب مجده . . وهى أنه يعمل أكثر من 16 ساعة فى اليوم . . وينفر من الجلوس إلى موائد الطعام ومن كثرة أنواعه ، ويرى نفسه أهلاً للاهتمام بأهداف أكبر من لذة الطعام أو طلب الراحة أو التماس المتعة .

ويتفق معه **الإسكندر الأكبر** (356-323 قبل الميلاد) ـ الذى قيل كثيرًا أن قبره تحت مدينة الإسكندرية فى مصر - ولم يثبت ذلك ـ فى زهده فى الطعام ، لكنه يختلف معه فى ميله لإطالة الجلوس إلى موائده ، ليس استمتاعًا بالطعام ، كما يقول المؤرخ بلوتارك . . وإنما استمتاعًا بأحاديث المائدة فى الشعر والأدب والتاريخ ، فلقد كان أيضًا لا يحفل بالطعام ،

وأهدت إليه ملكة مقاطعة كاريا لحومًا، وأرسلت إليه طهاتها ليعدوا له وجبات فاخرة، فقال لها: تعودت أن أستغنى عن طعام العشاء بالمشى الطويل فى المساء وألا أتناول فى الإفطار والغداء إلا طعامًا بسيطًا!

وكان طعامه بسيطًا.. وحياته بسيطة أيضًا، فكان يخلع ملابسه، ويلعب الكرة مع ضباطه، وقد وزع أملاكه فى مقدونيا على أصدقائه حين بدأ فتوحاته الخارجية.. وسألوه عما احتفظ به لنفسه، فأجاب: احتفظت لنفسى بآمالى!

وكانت آماله أكبر كثيرًا من سنه.. ومن كل ما وزع على أصدقائه وقد كان مثقفًا، تعلم على يدى معلمه أرسطو: الفلسفة والطبيعة والطب، وأضاف إليهما اهتمامه بالأدب والشعر والتاريخ.. وأرسل إلى بلده مسرحيات سوفوكليس واسخيلوس ويوربيدوس، وحقق كل أمجاده ومات فى سن الـ33.

ومثلهما كان **السلطان محمد الفاتح** (1429-1481)، الذى فتح القسطنطينية، ولم يسعدنى الحظ بعد بزيارة تركيا، لأبحث عن ضريحه فى استانبول، فقد كان كما قال المؤرخون عنه عدوًا للترف.. حياته جادة وطعامه بسيطًا ومائدته فقيرة، وأمضى حياته إما فى قلب المعارك، أو يتدرب على فنون الحرب والصيد.. أو يقرأ فى جو هادئ بلا ندمان ولا معطيات كما كان الشائع فى عصره، وكان مولعًا بقراءة التاريخ ومحبًا للرياضيات والفلسفة والجغرافيا، ويجيد العربية والفارسية واليونانية واللاتينية،

ويتذوق الأدب والشعر والفنون ومغرمًا بقراءة سير العظماء والأبطال، ومفتونًا بوجه خاص بشخصية الإسكندر الأكبر.

هل لاحظت شيئًا مشتركًا بين حياة معظم هؤلاء العظماء؟ أنا شخصيّا لاحظت أن معظمهم يتفقون فيد عدة سمات أهمها أنهم جميعًا - فضلاً عن مواهبهم - مثقفون فى أكثر من حدود مجالات تخصصهم - وأنهم غالبًا يجيدون قراءة التاريخ، ويتذوقون الأدب والفنون، ويمارسون بعض الهوايات، ويتميزون جميعًا بإرادة من حديد. . وطموح بلا حدود، وأن حياتهم دائمًا جادة. . وساعات عملهم أضعاف ساعات نومهم وراحتهم واستمتاعهم، وأن طعامهم بسيط. . وحياتهم أبسط. . كأن هؤلاء القواد والمفكرين العظماء، الذين أتعبنى البحث عن بيوتهم وتماثيلهم وقبورهم يقولون لنا جميعًا:

كلْ قليلاً. . وفكر واقرأ كثيرًا. . واعمل أكثر وأكثر واجعل آمالك أكبر من «أملاكك» لكى تحقق ما حققناه، ويصبح بيتك وتمثالك ومقبرتك مزارًا للأجيال التالية من بعدك!

أو كأنهم يفسرون لنا - بمفهوم المخالفة - أسباب خمول بعضنا وانعدام طموحهم وتفاهة شأنهم. . وهى أنهم يأكلون كثيرًا ويلهون أكثر ويفكرون قليلاً ويقرأون أقل ويعملون أقل من القليل!

يا إلهى. . بدأت مقالى بالحديث عن هوايتى إياها. . فانتهيت منه إلى هذه النتيجة «المحرجة»! ألم أقل لك من البداية إنها هواية متعبة؟

قضــية الموســم !

سامحه الله زميلى العزيز الذى ورطنى فى هذه القصة منذ نحو 30 عامًا، فقد تعلمت منها درسًا، أستفيد به مادامت حياتى.

وقبل أن أرويها لك لابد أن أتحدث إليك ـ مضطرًا ـ عن نفسى، فأقول لك إننى إنسان مسالم لا أحب أن أنازع أحدًا على شىء، ولم أشك أحدًا للشرطة أو للقضاء طوال رحلة العمر، وطبيعتى التى لا حيلة لى فيها ترغمنى على التنازل عن حقى، إذا لم يكن هناك من سبيل للحصول عليه سوى منازعة من يغتصبه والوقوف أمامه فى المحكمة أو فى القسم.. ومبدئى الذى أدعو له دائمًا فى كتاباتى فى بريد الجمعة بالأهرام هو أنى أفضل دائمًا ألا يتنازع الأهل والأقارب والأصدقاء السابقون.. وتصل منازعاتهم إلى أقسام الشرطة وساحة القضاء، مهما كانت الأسباب، وأردد دائمًا أن التنازل عن الحق فى مثل هذه الحالة أكرم للمرء من أن يقف فى ساحة المحكمة خصمًا لمن كان حتى وقت قريب من خلصائه أو من الأهل الأقربين، فإذا كان قد استباح لنفسه ما ليس من حقه، ويرفض أن

يؤديه لصاحبه بالطرق الودية . . ففى السماء قاضٍ عادل لا تضيع عنده الحقوق، ولابد أن ينتصف للمظلوم ذات يومٍ وينتقم من الظالم وليهنأ الغاصب مؤقتًا بما اغتصب فلن يطول الوقت حتى يدفع الثمن غاليًا .

وأما «الأذى» الذى يتبرع به البعض ضد الآخرين فيفترون عليهم بما ليس فيهم . . أو ينهشون أعراضهم بلا مبرر . . ويدَّعون عليهم بما لم يفعلوا ويرتكبوا، فمبدئى فيه ألا أرد إيذاء أحد بإيذاء مماثل وأن أغالب نفسى وغريزة حب الانتقام الكامنة فى كل إنسان لأردَّها بجهد جهيد عن الانتقام ممن تعمدوا الإساءة إلىَّ .

ولا أعتبر ذلك موقفًا سلبيًا من الحياة والبشر، وإنما أعتبره تعففًا عن الصغائر، وحرصًا على عدم الانزلاق إلى نفس الهاوية التى أنزلق إليها من استباح لنفسه ارتكاب الأذى . . وأتذكر دائمًا كلمة الإمبراطور الرومانى الحكيم ماركوس أورليوس «أفضل ما تعاقب به من أساء إليك هو ألا تكون مثله»! وكلمة العظيم عمر بن الخطاب «خير ما تعاقب به من لم يتقوا الله فينا هو أن نتقى نحن الله فيهم» وأردد كثيراً فى ردودى ومقالاتى كلمة الحكيم الصينى الذى قال : «لا تقتل خصمك ولكن اجلس على حافة النهر وانتظر فلن يمر وقت طويل حتى يحمل التيار جثته إليك، فى مجلسك بغير أن تلوِّث يدك بدمه!»، وهى كلمة حكيمة تجمع بين الإيمان بالله . . وبين الفهم الصحيح للنفس البشرية . . فإذا كان خصمك قد ظلمك

فلابد أن ينتقم لك ربك منه فى الوقت المناسب وهذا هو الجانب الإيمانى فى هذه الفطرة، أما الجانب العملى الواقعى منها فهو أنك إذا كنت على حق فى موقفك من خصمك فهذا يعنى أنه إنسان سىء الخلق والطبع . . وكما تعامل معك بأخلاقياته هذه فسوف يتعامل مع غيرك بها بالضرورة، ولابد أن يصطدم بمن هو أقوى منه وأشد نكرًا فلا يتردد فى رد أذاه بالإيذاء وبالعقاب الأشد قسوة فيصرعه أدبيّا واجتماعيّا، ويلقى مجازًا «بجثته» فى النهر . . فيحملها التيار إليك فى مجلسك على شاطئه، دون أن تلوث أنت يدك بدمه، ولا عجب فى ذلك «فقد ينتقم الله من ظالم، ثم ينتقم من كليهما معًا» كما قال صادقًا الإمام مالك بن أنس . .

لهذا كله أفضِّل دائمًا ألاَّ أرد إيذاء أحد بإيذاء مماثل . . ودعائى المفضل إذا اشتد همى بما أعانيه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان هو : وأفوِّضُ أمرى إلى الله . . حسبى الله ونعم الوكيل .

فإذا كنت قد أطلت مضطرّا فى حديث عن الجانب الشخصى من حياتى، فلكى ندرك فقط حالى حين اضطرتنى الظروف المحرجة ذات يوم لمنازعة إنسان ما بشكل رسمى وحول شىء أتفه من التفاهة! والحكاية أننى منذ نحو 30 عامًا كنت سكرتيرًا للجنة النشاط الثقافى والفنى بنقابة الصحفيين وكنت أنظم لأعضاء النقابة حفلات وندوات عديدة، وكان مراقب النشاط بالنقابة فى ذلك الوقت صحفيّا زميلاً معروفًا بصرامته وشخصيته العنيفة، ثم حدث أن

أقمت حفلاً فى إحدى المناسبات ووقفت أشرف على تنظيمه وإدارته . . فتصبب العرق منى بتأثير حرارة الجو فى قاعة الحفلات، وكنت أرتدى البدلة الكاملة كعادتى وأرتدى تحت الجاكيت «بلوفر» جديداً من الموهير الذى كان وقتها «صيحة» جديدة فضقت بحرارة الجو مع اضطرارى للوقوف خلف الكواليس وتنظيم الحفل، فدخلت حمام النقابة وخلعت البلوفر وأعدت ارتداء الجاكيت ورجعت للحفل، فما إن رأيت أحد جرسونات بوفيه النقابة حتى أعطيته البلوفر وطلبت منه أن يحفظه لى فى دولابه الخاص بالبوفيه إلى ما بعد انتهاء الحفل.

ودخلت قاعة الحفل وواصلت إشرافى عليه إلى أن انتهى بسلام وانصرف الحاضرون فاستدعيت الجارسون وطلبت منه إحضار البلوفر فإذا به يتلعثم . . ويتهرب . . ويقول لى إنه لا يعرف أين وضعه؟ وكان الجارسون شابا مستهتراً تكررت منه من قبل حوادث ومغالطات فجة مماثلة . . فضقت ذرعًا بمحاولته خداعى على هذا النحو الفاجر وصرخت فيه بأنه إذا كان يريد البلوفر لنفسه فإنى مستعد لأن أعطيه له هدية . . لكنه لا يصح أن يغتصبه منى بهذا الخداع الرخيص . . مع علمه بأنى أستطيع كعضو فى النقابة عقابه على ذلك عقابًا صارمًا . . فلم يتزحزح عن موقفه وتلعثمه.

ولفت جدالى معه أنظار بعض زملائى فأبلغوا مراقب النشاط بالقصة، فاستشاط غضبًا واندفع وراء طبيعته العنيفة . . ورفع

سماعة التليفون واتصل بقسم الشرطة الذى تتبعه النقابة وطلب منى الذهاب الى القسم لتحرير محضر رسمى بسرقة البلوفر! يا إلهى محضر رسمى . . وقسم شرطة ، من أجل بلوفر حتى ولو كان من «الموهير» الجديد وقتها؟ لا يا سيدى إننى متنازل عنه . . ويكفينى أن تزجره أو حتى تصفعه حتى لا يكرر استهتاره هذا مع غيرى . . فإذا بمراقب النشاط العنيف ينتفض غضباً . . ليس من الجارسون السارق هذه المرة . . ولكن منى أنا شخصيّاً لتهاونى فى كرامة النقابة وتسترى على هذا الفعل الشائن برفض عمل محضر رسمى به .

وتحدث فى هذا المعنى طويلاً بانفعال ، حتى خيِّل إلىَّ أننى لو رفضت الذهاب إلى قسم الشرطة . . فإن كرامة نقابة الصحفيين سوف تضيع إلى الأبد . . وتكالب علىَّ بعض الزملاء الحاضرين ، وأيدوا المراقب فى وجهة نظره . . فلم أجد مفرّاً من الامتثال . . ووجدت نفسى بعد قليل أسير وسط «زفة» من الزملاء ومعنا الجارسون المتهم إلى نقطة الشرطة القريبة من مبنى النقابة ، واستقبلنا الضابط الشاب بحفاوة ، ونظر إلى الجارسون بغيظ بعد أن سمع القصة ودبج محضره ووقعت عليه وانصرفت وعدت إلى بيتى وأنا ألوم نفسى على ضعفى مع مراقب النشاط واستجابتى لرغبته .

وفى مساء اليوم التالى ذهبت إلى مبنى النقابة ، فكان أول من سألت عنه هو الجارسون المستهتر لأعرف منه ماذا تم فى المحضر ،

فأبلغني زملاؤه أنه محتجز في قسم قصر النيل ينتظر من يضمنه للإفراج عنه، فلم أدخل المبنى وركبت سيارتي إلى قسم قصر النيل وقابلت الضابط المختص.. وقدمت له بطاقتي الشخصية راجيًا الإفراج عنه بضمانتي، وكان الضابط شابًا لطيفًا فرحب بي وبدأ في اتخاذ إجراءات الضمان، ثم توقف وهو يدقق النظر في أوراق المحضر وفي بطاقتي عدة مرات، وأخيرًا رفع رأسه، وقال لي باستغراب: أنت المجني عليه في حادث السرقة!

فقلت له: إن الأمر كله أبسط من البساطة، فالسرقة تافهة.. والجارسون شاب مستهتر، ولعل في مجرد دخوله قسم الشرطة ردعًا كافيًا له ورجوته ألا يخذلني؛ لأنه سيتعذر على في هذا الوقت من المساء أن أعثر على زميل آخر مستعد لأن يضمن هذا الشاب، فقال لي الضابط إنه سوف يستشير في ذلك نائب المأمور، ويسأله عن إمكانية أن يقوم المجني عليه بضمان الجاني في الإفراج عنه وغادرني إلى مكتب نائب المأمور، ثم عاد بعد دقائق وأتم الإجراءات وسلمني بطاقتي الشخصية، فشكرته وانصرفت، ثم صادفتني بعد ذلك ظروف خاصة في عملي اضطرتني للتوقف عن نشاطي النقابي والانشغال أكثر بعملي الصحفي؛ فامتنعت عن التردد على مبنى النقابة بضعة شهور، نسيت خلالها هذه القصة تمامًا إلى أن فوجئت ذات صباح بجندي شرطة يطلب مقابلتي في مكتبي بالأهرام وقابلته فإذا به مندوب تنفيذ أحكام يسألني عن عنوان الشاب «فلان

الفـلانى» للقـبض عليـه وتنفـيـذ الحكم الصـادر ضـده بالحـبس، فتعجبت؛ لأن يسألنى عن شـاب لا أعرفه، وقلت له ذلك فأجابنى مستنكرًا: كيف لا تعرفه وأنت المجنى عليه فى حادث السرقة؟

يا ربى.. «البلوفر» اللعين مرة أخرى! وحكم بالحبس، ومتهم هارب ومطلوب منى مساعدة الجهات المختصة فى العثور عليه.

وسألـت عن الحكم الصادر ضد هذا الشاب، فإذا به حكم غيابى بالحبس لمدة شهر!

واكتأبت لما عرفت، وصرفت الشرطى مؤكدًا له أننى لا أعرف عنوان هذا الشاب ولو عرفته لما صارحته به ولعنت فى سرِّى مراقب النشاط بالنقابة الذى أحرجنى، وورطنى فى تقديم البلاغ للشرطة فى البداية، موهمًا إياى أننى إن لم أفعل فسوف «أخون» كرامة المهنة! ودعوت الله فى سرى ألا يعثروا على هذا الشاب المستهتر فهو ليس مجرمًا أصيلاً وإنما شاب عابث يكفى لإصلاحه ما تعرض له من حجز بقسم الشرطة فى حينه، وقد أراد بسذاجة أشد أن يصلح خطأه بعد الإفراج عنه فجاء «بالبلوفر» موضوع القضية وألقاه فى أحد حمامات مبنى النقابة وعثر عليه السعاة وجاءونى به، فرفضت أن ألمسه بعد أن تشاءمت منه ومما جره على من متاعب، ثم شغلتنى مشاغل الحياة عن هذه القصة فنسيتها من جديد، إلى أن صحوت على رنين جرس التليفون فى مسكنى ذات صباح وإذا بهذا

الشاب المستهتر نفسه يبلغنى أنه قد علم بحكم الحبس الصادر ضده واستأنفه وتحددت له جلسة لنظر القضية بعد أيام، ثم يسألنى بعد ذلك هل سأشهد ضده فى المحكمة إذا ذهبت إليها؟ فلعنت البلوفر والجارسون ومراقب النشاط فى سرى، وأبلغت الشاب أننى لا أعرف شيئًا عن المحكمة ولا عن جلساتها. . ومع ذلك فسوف أحضر الجلسة القادمة لا للشهادة ضده، وإنما لشهادة الزور لصالحه لكى أبرئه من حكم الحبس الذى ينتظره أملاً أن يكون قد تعلم الدرس واستفاد منه.

وسعد الشاب بذلك وأكد لى أنه سيتصل بى صباح يوم الجلسة ليذكرنى بموعدها، وفى اليوم المحدد كنت قد نسيت القصة كالعادة فنمت فى الـ5 صباحًا، فإذا به يتصل بى فى الـ7 بعد ساعتين فقط ويذكرنى بموعد الجلسة فنهضت من نومى مترنحًا وركبت سيارتى وذهبت إلى مبنى المحكمة وجلست بين المتقاضين من الـ9 صباحًا حتى الـ2 بعد الظهر دون أن تعرض القضية، وعرفت من الحاجب أنها تأجلت لموعد آخر.

وودعنى الشاب حتى باب السيارة وهو يعتذر لى عن إزعاجى بلا طائل، ثم طلب منى مبلغًا من النقود؛ لأنه عاطل ولا يعمل فأعطيته ما سمحت به ظروفى، وظللت بعد ذلك أتردد على المحكمة لبضعة شهور تالية، وفى كل مرة يوقظنى من نومى فى الـ7 صباحًا، وأذهب لأجلس بين المتقاضين بضع ساعات وأدفع للحاجب لأعرف موعد

الجلسة القادمة، وفى كل مرة ألتقى فى مبنى المحكمة بمحام من معارفى وأصدقائى ورفاق السهر فى مقهى سوق الحميدية، الذى كنت أمضى فيه سهراتى وقتها، فأرجوه أن يدخل معنا قاعة الجلسة، ويدافع عن «المتهم» حتى تناوب على الدفاع عنه 4 من المحامين المعروفين مجاملة لى، وشاهدنى أحدهم أعطى للشاب المستهتر مبلغًا صغيرًا من النقود، وكان المحامى من ظرفاء عصره ـ رحمه الله ـ فقال لى معلقًا على ذلك:

ـ هذه أغرب جريمة سرقة تعاملت معها فى حياتى، فالجانى يبتز المجنى عليه بانتظام، وكأنما هو الضحية وليس الجانى!

ثم نصحنى ضاحكًا بأن أعطى هذا الشاب المستهتر مائة جنيه، وكانت وقتها مبلغًا كبيرًا.. وأن أدعه ينفذ حكم الحبس لمدة شهر بدلاً من هذه المرمطة.. والاستنزاف المتوالى للجهد والنقود!

وأصبحت قضية «البلوفر» حديث سهرتنا فى سوق الحميدية.. وجعلها المحامى الأديب الفنان عباس الأسوانى، وكان من أظرف الظرفاء ـ رحمه الله ـ قضية الموسم بتعليقاته الساخرة.. الذكية. وكان يسمى رفاق السهرة اليومية من المحامين «هيئة الدفاع» فى قضية البلوفر! ويؤكد لى أن الجارسون المتهم يرشو حاجب المحكمة سرًّا لكى تطول القضية وتتأجل إلى أطول فترة ممكنة.. لكى يستمر فى «ابتزازى» إلى مالا نهاية باستثارة إحساسى «بالذنب» تجاهه، وقال إن من يرانى وأنا

أدخل قاعة المحكمة مهمومًا ومكتئبًا، ويرى الجارسون وهو يسير إلى جوارى مبتسمًا ومبتهجًا يتصور أننى «الجانى» ، وهو الضحية!

وطالت «القضية» بالفعل أكثر من عام، تكلفت خلالها من الوقت والنقود والجهد . . ما يشترى كمية بلوفرات كبيرة من أحدث الأنواع . . إلى أن جاءت الجلسة الأخيرة ونظرت القضية لأول مرة . . فلم يستغرق نظرها دقائق، وصدر الحكم «ببراءة» المتهم . . فكاد يغمى على من الانفعال! وتبادلت أنا وصديقى المحامى التهانى بزوال «الغمة» التى شغلتنى أكثر من عام، وانصرفنا من المحكمة، ونحن نتواعد على اللقاء فى المساء بالمقهى، وركبت سيارتى مبتهجًا وسعيدًا فجاءنى الجارسون المستهتر يشكرنى ويدعو لى بالستر . . وأنا أهز رأسى مبتهجًا . . ثم اختتم شكره بأن طلب منى مرة أخرى مبلغًا من النقود . . فوجدت صدرى ينتفخ بالهواء . . ووجدتنى أقول له بقوة عجيبة: مفيش يا بن . . !

ثم أدرت موتور السيارة وتحركت بها وأنا فى قمة الابتهاج والسعادة لتحررى من «ذلى» وضعفى وإحساسى بالذنب تجاه هذا الشاب! فهل عرفت الآن لماذا أنصح قرائى بالتنازل عن حقهم، إذا كان لا يستحق عناء النزاع حوله، وإذا لم يكن هناك سبيل لأن ينالوه . . سوى دخول قاعة المحكمة؟



أعطِ الصباح فرصة!

التجارب الإنسانية لايمكن أن تخرج بأى حال من الأحوال عن كونها تجارب سعيدة ناجحة ، تبعث على الأمل والبسمة والتفاؤل والإقبال على آتِ الحياة، أو كونها تجارب مؤلمة وصعبة ، تبعث على اليأس والقنوط والعزوف عن مواصلة الحياة .. وهنا لايصبح أمامنا بديل عن أن نعطى الصباح فرصة، أو بمعنى أدق أن نبحث عن طاقة للأمل من جديد ولإشراقة نور تضىء لنا ظلام الطريق .. لكى تعاود الحياة بسمتها مرة أخرى...

★ عبد الوهاب مطاوع 1940 ـ2004

★ شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

★ حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

★ كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

★ صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها [illegible] البعض الآخر قصصًا [illegible] أدبية ومقالات فى أدب [illegible]

★ صدرت له ثلاث [illegible] هى: (أماكن فى القلب [illegible]) (والحب فوق البلاط).



